الباب الثالث

ابن زيدون

(٣٩٤ – ٤٦٣ هـ)

الفصل الأول

ابن زيدون : عصره ونشأته ، حبه لولاّدة

البيئة التاريخية والسياسية :

بلغت الدولة الأموية فى الأندلس أوج مجدها زمن خلافة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم الثانى من بعده. ثم كان حُكمُ الحاجب المنصور الذى استبد بالخلافة امتداداً لهذا العهد الذهبى الذى عرفته بلاد الأندلس. وكانت وفاة الحاجب المنصور سنة ٣٩٢ هـ/ ١٠٠٢ م ثم جاء من بعده ابنه عبد الملك المظفر فتابع سياسة العامريين الاستبدادية ولكن الأندلس استطاعت أن تحافظ على عهد ازدهارها خلال الأعوام الستة التى حكم فيها والتى مات فى نهايتها مسموماً عام ٣٩٩ هـ.

ومنذ هذا التاريخ يبدأ عهد الاضطراب أو كما يسميه المؤرخون العرب « عهد الفتنة ». وقد ظلت نار هذه الفتنة مشتعلة حتى سنة ٤٢٢ هـ. وهى السنة التى مات فيها آخر خليفة أموى هشام الثالث الملقب بالمعتمد بالله. وقد كانت قرطبة خلال هذه السنين مسرحاً لاضطرابات دامية لعب فيها البرابرة دوراً هامًّا لميلهم إلى العامريين. وتوالى فى هذه الفترة عدد من الخلفاء ، كان كل واحد منهم يشن العداء على الآخر فيجد أنصاراً يؤازرونه من البربر أو من الإسبانيين على السواء. وقد لاقت قرطبة من جراء هذه الفتنة ضرراً كبيراً فنهبت وخُرِّب أجمل قصورها[1].

وهكذا لا يكاد يطل القرن الخامس للهجرة حتى رأينا شمس الخلافة الأموية

---

(١) إليكم من تعاقب من الخلفاء فى أثناء الفتنة :

محمد المهدى (٣٩٩ – ٤٠٠هـ)	عبد الرحمن المستظهر بالله (٤١٤هـ)
سليمان المستعين بالله (٣٩٩ – ٤٠٧هـ)	محمد المستكفى بالله (٤١٤ – ٤١٦هـ)
عبد الرحمن المرتضى (٤٠٨– ٤٠٩هـ)	هشام الثالث المعتمد بالله (٤١٨ – ٤٢٢هـ)

فى الأندلس تخبو شيئاً فشيئاً ، ورأينا إزاء هذه الاضطرابات وهذا الضعف يتقوض ذلك البناء الضخم الذى شاده العرب فى قرطبة ورأينا تلك الدولة الأموية فى الأندلس تتجزأ فى دويلات صغيرة عرفت بدول طوائف الملوك ، فأخذ كل أمير فى إقليم بل كل حاكم فى مدينة يسترد حريته ويستقل فى إقليمه أو مدينته ويكون دولة لها استقلالها ونظامها ، فكان فى قرطبة بنو جهور ، وفى إشبيلية بنو عباد ، وفى طليطلة بنو ذى النون ، وفى بطليوس بنو الأفطس ، وفى سرقسطة بنو هود ، إلى آخر ما هنالك من الطوائف التى كان يناهض بعضها بعضاً .

على أن هذه المناهضة لم تحل دون الازدهار الأدبى ، فقد عرفت دول ملوك الطوائف عهداً زاهراً للآداب وبلغ النشاط الأدبى أقصاه .وكنت ترى قصر كل ملك منتدى لأهل الشعر والأدب ، وقد تنافس هؤلاء الملوك فى اجتلاب الشعراء والكتاب والمغنين إلى قصورهم ليباهوا بهم من حولهم من الملوك والسلاطين . وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفر وابنه المتوكل ملكى بطليوس ، والمعتضد وابنه المعتمد ملكى إشبيلية .

* * *

فى غمرة هذا النشاط الأدبى ، وفى فورة هذه الفتن المضطربة نشأ شاعرنا ابن زيدون وأتم حياته فى فجر عهد ملوك الطوائف ، واتصل فى جملة ما اتصل بملوك دولتين كبيرتين من دول الطوائف هما الدولة الجهورية والدولة العبادية .

أما الدولة الجهورية فقد نشأت فى أعقاب الفتنة سنة ٤٢٢ هـ عندما صار الأمر فى قرطبة إلى طبقة الخواص فقام عميدها أبو الحزم بن جهور واستولى على الأحكام فى قرطبة وتأسست فيهاحكومة شورية عرفت بالدولة الجهورية حكمت من سنة ٤٢٢ إلى ٤٦١ هـ .

أما الدولة العبادية فهى دولة عربية من بنى لخم قامت فى إشبيلية ونزح إليها شاعرنا ابن زيدون — كما سنرى — وحكمت من سنة ٤١٤ إلى ٤٨٤ هـ . وهى من أبهج الدول فى الفضل والكرم وحب الأدب ، وقد تفيأ شاعرنا ابن زيدون فى عهد ملكيها المعتضد والمعتمد ظلال النعيم والهناء .

فمن هو ابن زيدون الذى نشأ فى هذا الجو المضطرب ؟

مولد ابن زيدون ؛ نشأته وثقافته :

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة سنة ٤٩٤ هـ / ١٠٠٣ م ، وهو أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون المخزومى الأندلسى القرطبى ، وهو ، كما نرى من نسبه ، عربىّ صريح ينتمى إلى قبيلة مخزوم القرشية التى ذكرها المقرى بين القبائل التى رحلت إلى الأندلس وذكر منها ابن زيدون .

كان أبوه قاضياً فى قرطبة وجيهاً ثريًّا غزير العلم والأدب ، ويذكر المؤرخون أنه توفى بإلبيرة ، بالقرب من غرناطة ، وهو متوجه إليها لتفقد بعض ضياعه . وحمل إلى قرطبة فدفن فيها ، فرثاه صديقه الشاعر القرطبى أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء فقال :

أَىُّ رُكن من الرياسة هِيضا وجَمُومٍ من المكارم غِيضا[١]
حَمَلوه من بلدة نَحْوَ أُخرى كى يوافُوا به ثراه الأَرِيضا[٢]
مثلَ حَمْلِ السحابِ ماءً طبيباً ليداوِى به مكاناً مَريضا[٣]

ولم يذكر ابن زيدون أباه فى ديوانه إلا مرة واحدة حيث يقول فى قصيدته الطائية التى يخاطب بها بعد فراره من السجن أستاذه الأديب أبا بكر بن مسلم مستنهضاً همته للشفاعة :

عليكَ أَبا بكرٍ بَكَرْتُ بهمة لها الخَطَر العالى وإن نالها حَطُّ
أَبى بعدَ ماهِيل الترابُ على أَبى وَرَهْطِىَ فَذَّاحِين لم يبْقَ لى رَهْطُ[٤]

---

(١) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء .
(٢) الأريض : الزكى المعجب للعين .
(٣) انظر نفح الطيب (طبعة محمد محى الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .
(٤) الديوان ص ١٣ — ١٥ .

وكانت وفاة والده سنة ٤٠٥ هـ ، وولادته سنة ٣٠٤ هـ[١].

أما أمه فقد ذكرها ابن زيدون مرتين فى آثاره ، الأولى عند ما زارته فى السجن فبكت فقال قصيدته :

أَلَمْ يـأْنِ أَنْ يَبْكِى الغمامُ على مِثْلى
ويطلبَ ثـأْرى البرقُ مُنْصَلتَ النَّصْلِ[٢]

والثانية فى رسالته إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم التى يقول فيها :

« وقد هجرتُ الأَرضَ التى هى ظئرى ، والدارَ التى كانت مَهْدى ، وَغِبْتُ عن أُمٍّ أَنا واحدُها ، تمتدُّ أَنفاسها شوقاً إلىَّ ، وَتَغُضُّ ، أَجفانَها حُزْناً علىَّ . . .[٣] »

ويظهر أنه كان يحبها حبًّا جمًّا ، ولا تفيدنا المصادر عن تاريخ وفاتها ولكننا نعلم أنها ما زالت حيةً عند خروجه من السجن سنة ٤٣٣ هـ .

هذا ولا نعلم شيئاً عن زوجته ولا عن تاريخ زواجه ، ولكننا نعلم أن له ابناً يدعى أبا بكر وَزَر للمعتمد بعد وفاة ابن زيدون سنة ٤٦٣ هـ ، وقتل يومَ سقطت إشبيلية بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ .

ونشأة الشاعر فى قرطبة ساعدته على الانكباب على العلم والتحصيل فقد كانت هذه المدينة موئل العلوم والآداب فى الأندلس ، ولا شك أنه قد بدأ يتلقى العلم على يد أبيه الذى وصله بالعلماء والفقهاء والأدباء من أصحابه ، ولكن الذى تلقاه عن أبيه لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً ، فقد كان ابن زيدون فى الحادية عشرة من عمره عند وفاة والده ، وهذا الموت المبكر لم يمنع شاعرنا من متابعة علومه . ويصفه من ترجم له بأنه كان كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ كثيراً من آثار الأدباء

(١) انظر نفح الطيب (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .
(٢) الديوان ص ١١٢ .
(٣) الذخيرة ، المجلد الأول ، ص ٣٥٣ .

وأخبارهم وأمثال العرب وحوادثهم ومسائل اللغة ، وكانت له أيضاً ثقافة فلسفية تدلنا عليها ما ورد له فى رسالته الهزلية من بعض مصطلحات الفلاسفة وأسمائهم كأفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجابر بن حيان وغيرهم. وإننا لنرى فى رسالته الهزلية والجدية فيضاً من المعارف التاريخية والثقافية الإسلامية وعدداً كبيراً من الأمثال والأشعار ، ولا شك أن هذه الثقافة قد تلقاها فى حلقات العلم والأدب فى قرطبة على يد مشاهير علمائها . ويذكر المستشرق (كور) فى رسالته عن ابن زيدون أستاذين له . هما أبو بكر بن مسلم بن أحمد وكان نحوياً أديباً متقدماً فى علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب ، والقاضى أبو بكر بن ذكوان[١].

وقد ذكر ابن زيدون هذين الأستاذين أكثر من مرة فى آثاره ، فهو يذكر أبا بكر بن مسلم فى قصيدته الطائية التى أشرنا إليها[٢]، ويوجه إليه رسالة أشرنا إليها أيضاً عند الحديث عن أمه نجدها فى الذخيرة[٣] وقد رثى أيضاً القاضى أبا بكر بن ذكوان فى قصيدة مطلعها :

اعْجَبْ لحال السَّرْوِ كيفَ تُحال ولدولة العَلْياءِ كيفَ تُدالُ
لاتَفْسَحَنْ للنفس فى شَأْوِ المُنى إن اغترارَكَ بالمُنَى لَضَلالُ[٤]

فثقافة الشاعر إذن ثقافة واسعة ، ولعله قد استقى معارفه من أكثر الكتب العلمية والأدبية الشائعة فى عصره .

ولم تكن قرطبة مسرحاً للعلم فقط بل كانت مسرحاً للهو والطرب ، وكان أهلها

---

(١) يرى الدكتور شوقى ضيف أن أبا بكر بن ذكوان هذا كان قاضى أبى الحزم بن جهور ولم يكن أستاذ ابن زيدون بل كان صديقه ورفيقه فى التلمذة والدراسة وتوفى سنة ٤٣٥ هـ وقد خلطوا بينه وبين أبى العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضى القضاة بقرطبة الذى امتدت حياته إلى سنة ٤١٣ ، ويظن الدكتور شوقى ضيف أن ابن زيدون لزم أبا العباس بن ذكوان هذا . وكان صديقاً لأبيه ، وأفاد من علمه وأدبه ، انظر كتابه عن ابن زيدون ص ١٦ .

(٢) الديوان ص ١٣ .

(٣) المجلد الأول ص ٣٥٠ .

(٤) الديوان ص ١٥٣ .

فى رخاء من العيش ميالين إلى هذا اللهو وهذا الطرب ، ولم تبعدهم الحوادث السياسية والفتن الداخلية عن الانهماك فى لهوهم ، بل لعل هذه الدسائس كانت تحالك فى مجالس اللهو هذه ، ونستطيع أن نقول إن ابن زيدون قد مثل أهل قرطبة فى شخصه أحسن تمثيل ، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيفُ الروح كثير الدّعابة ، ميالٌ إلى المجون إلى جانب طموحه السياسى ، لهذا فقد نال شهرة واسعة فى مجالس قرطبة الأدبية والاجتماعية والسياسية .

وقد كان للنساء دورٌ فى هذه المجالس ، وكان لبعض هؤلاء النساء منتديات أدبية يخالطها الشعراء والأدباء ، فأثر هذا الوسط فى نفس شاعرنا ، وكان ابن زيدون من بين هؤلاء الشعراء الذين ظهر على نظمهم آثار هذه الحياة الاجتماعية وممن نالوا حظوة فى مجالس النساء هذه ولا سيما فى مجلس ولاّدة التى سنتحدث عنها . فلهذا يمكننا أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : إنه شاعر متأثر بالجمال مشغوف بمجالس اللهو وهذا ما سيقودنا إلى الحديث عن علاقاته مع ولاّدة ، ثم هو شاعر سياسى طموح وهذا ما ستجلوه لنا علاقاته مع الجهوريين وما ناله من سجن ، ثم انتقاله إلى بنى عباد وحظوته عند ملوكهم وما رافق هذه الحياة المضطربة من شعر مدح وشعر شكوى وشعر غزل .

ابن زيدون و ولاّدة :

شغف ابن زيدون بولادة ملبياً بذلك دواعىَ قلبه ، فمن هى هذه المرأة وما هى أطوار هذا الحب الذى فتن قلبَ الشاعر العربى وجعله ينطق بالشعر الخالد .

ولاّدة هذه هى بنت المستكفى بالله الخليفة الذى جاء قبل المعتمد بالله آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، وقد كانت بيعته سنة ٤١٤ هـ ، ولم يدم حكمه إلا سنتين فى فترة مضطربة . وكان ماجناً كما يحدثنا عنه ابن بسام فيقول : « لم يجلس فى الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص »[١] وقد ترك بنتاً لم يذكر المؤرخون سنة

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٨٧ .

ولادتها، ولكنهم ذكروا وفاتها فقال المقرى إن وفاتها كانت سنة ٤٨٠ أو سنة ٤٨٤ هـ[١] وقالوا إنها عمرت طويلاً ، فإذا حددنا سنة ولادتها حوالى سنة ٤٠٠ يكون عمرها عند وفاة والدها يقارب الستة عشر عاماً أو العشرين أو أكثر من هذين الرقمين بقليل ولا شك أن هذا مجرد افتراض وهو افتراض لا يبعد كثيراً عن الحقيقة كما نراه من الأرقام ، ويبدو أن أبا ولادة قد اهتم بتثقيفها فأحضر لها المعلمين والمؤدبين . ولم تلبث أن تفتحت مواهبها . وكأنها كانت تنتظر موت أبيها (سنة ٤١٦هـ) حتى تطلق لنفسها العنان وتجاهر بحياتها الحرة . وقد خصها المقرى بفصل خاص تحدث عنها وعن جمالها. وأورد لها شيئاً من الشعر . وقال ابن بسام فى ذخيرته[٢] إنها كانت واحدة أقرانها يتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وكان مجلسها فى قرطبة منتدى لأحرار المصر ، ولعله لم يبتذل حجابها إلا بعد وفاة أبيها ، كما يبدو من كلام ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون الهزلية إذ يقول : « ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف »[٣]. وإذا صح ما روى عنها وعن غيرها من بنات الملوك والأمراء من أخبار اللهو والعبث ومجالس الأنس فإن الحرية التى كانت تتمتع بها المرأة العربية فى الأندلس تفوق ما ألفه المشرق ، وقد ذكر ابن بسام فى ذخيرته أن ولادة على علو نصابها وكرم أنسابها وطهارة أثوابها اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . كتبت فيما زعموا على أحد عاتقى ثوبها مطرزاً بالذهب :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مِشْيتى وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

وأُمْكِن عاشقى من صحن خدى وأعطى قُبْلَتِى من يشتهيها[٤]

---

(١) المقرى ج ٢ ص ١٠٩٨ .
(٢) القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٧٦ — ٣٨٧ .
(٣) سرح العيون ص ٧ .
(٤) الذخيرة ص ٣٧٦ .

وهكذا كان لها أن تعبث ، وكان لها جمالها وشعرها تغنيه ويغنى لها فى مجلسها الأدبى الذى كان يضطرم فيه الهوى والفن والشعر .

ولم تكن ولادة فريدة فى الحرية والجرأة فى التعبير عن عواطف الحب أو اللهو بل كان يشاركها فى هذه الظاهرة كثيرات من حرائر ذلك العصر . وقد ذكر الرواة لحفصة بنت الحاج ، من أشراف غرناطة ، شعراً لا يقل مجاهرة عن شعر ولادة قالت :

ثنائِى على تلك الثنايا لأَننى أَقولُ على عِلْم وأَنطِق عن خُبْرِ
وأُنصفها لا أَكذِبُ الله إننى رشفتُ بها ريقاً أَرقَّ من الخمر[1]

وهكذا نرى أن ولادة مع ميلها للأدب ونظمها للشعر كانت مولعة بالحب مستسلمة للعبث ولكنها لم تتزوج طوال حياتها ، وقد أولع بها ابن زيدون وأولعت به وربط المؤرخون ذكْرَها بذكْره .

لا شك فى أن ابن زيدون كان من جملة الشعراء الذين يقصدون منتداها الأدبى ، وهو فى ميعة الشباب ، وفى هذا المنتدى تمكنت بينهما أواصر الصداقة ووقع فى أشراك حبها . على أننا لا نعلم متى كان اللقاء الأول الذى تطارحا فيه الغرام . وها هو ذا ابن بسام يصفه لنا على لسان ابن زيدون :

قال أبو الوليد كنتُ فى أيام الشباب وغرة التصابى هائماً بغادة تسمى ولاّدة فلما قَدِم اللقاء وساعد القضاء كتبت إلىّ :

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلامُ زيارتى فإنى رأَيتُ الليلَ أَكْتَمَ للسرِّ
وبى منكَ مالو كان بالبدرِ مابَدَا وبالشمس لم تَطْلُعْ وبالبدرِ لم يَسْر

وذهب إلى الموعد المضروب ، ويقص علينا ابن بسام وصف هذه الخلوة على لسان شاعره بل وصف هذه الغادة التى أحبها ، فتنساب على شفتيه الأوصاف

---

(١) المقرى ٢/١٠٩٧ .

التقليدية ويقول : « فلما طوى النهار كافوره ونشر عنبره[١] ، أقبلت بقدّ كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مُدبَّج[٢] وظل سَجْسج[٣] ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودُرّ الطل منثور ، وجيب الراح مزرور ، فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كلٌّ منا بحبه ، وشكا إليه ما بقلبه ، وبتنا بليلة نجنى أقحوان الثغور . . . »[٤]

هل كان هذا هو اللقاء الأول ، ألم يسبق هذا اللقاء خلوات وأحاديث صريحة غير تلك التى كانا يتبادلانها فى مجلسها الأدبى ؟ على أننا لا نزعم أن هذا المنتدى كانت تجرى فيه أحاديث الأدب الرفيع فقط ، ولعل حرية القول والعبث كانا فيه على جانب كبير . ونرى أن هذه الكلمات التى نقلها لنا ابن بسام ليس فيها وصفٌ حار أو صدق عاطفة ، بل هى كلمات يطغى عليها فن الكاتب النثرى وتأنقه اللفظى الذى يسود أساليب العصر ، ومهما يكن من أمر فهو لقاء ماجن وحب متهتك . ويضيف ابن زيدون بعدما وصف من اللقاء قوله :

« فلما انفصلنا صباحاً أنشدتها ارتياحاً :

وَدَّعَ الصبرَ محبٌّ ودَّعَكْ ذائعٌ من سِرِّهِ ما استَوْدَعَكْ
يقرعُ السِّنَّ على أَنْ لم يكن زادَ فى تلك الخُطا إذ شيَّعَكْ
يا أَخا البدرِ سَناءً وسنًى حَفِظَ الله زماناً أَطْلَعَكْ
إن يَطُلْ بعدَك لَيْلى فَلَكَمْ بِتُّ أَشكُو قِصَرَ الليل معكْ »

وقد نسب صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هذه الأبيات لابن زيدون ، إلا أن المقرى نسبها لولادة ، فقال : « ووَفت بما وَعدَتْ ، ولما أراد الانصراف

---

(١) كافوره : بياضه ، عنبره : سواده ، وهنا استعارتان .
(٢) مدبج : مزين بالأزهار .
(٣) سجسج : الهواء المعتدل اللطيف .
(٤) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٧٧ .

ودّعته بهذه الأبيات » .

ونفضل نحن نسبتها لابن زيدون ، إذ أن صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هما أقرب عهداً بالشاعر من المقرى ، والديوان الذى بين أيدينا ينسبها لابن زيدون أيضاً .

وقد كانت حدائق قرطبة وبساتينها مرتعاً لحبهما ، وفى خمائلها أخذا يتساقيان كؤوس الهوى ويعبان من شذى النعيم تغمرهما ظلال الحب ودفؤه .

على أن أيام هذا الحب المتبادل لم تدم طويلاً على ما يظهر ، ويذكر بعض من أرّخ لابن زيدون أن جفوة حصلت بين الشاعر وصاحبته ، فكتبت إليه :

أَلا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّقِ ... سبيلٌ فيشكو كلُّ صَبٍّ بما لَقِى
وقد كنتُ أوقاتَ التزاور فى الشتا ... أَبيتُ على جَمرٍ من الشوق مُحْرِقِ
فكيف وقد أمسيتُ فى حال قَطْعةٍ ... لقد عَجَّلَ المقدورُ ما كنتُ أَتَّقِى
تمرُّ الليالى لا أرى البَيْنَ ينقضى ... ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّق مُعْتِقِ
سَقَى اللهُ أَرضاً قَدْ غدتْ لك منزلاً ... بكل سَكوبٍ هاطلِ الوَبْلِ مُغْدِقِ

فأجابها بقوله :

لَحَا الله يوماً لستُ فيه بِمُلْتَقٍ ... مُحَيَّاكِ من أَجْلِ النَّوَى والتفرُّقِ
وكيفَ يطيبُ العيشُ دونَ مَسَرَّةٍ ؟ ... وأَىُّ سرور لِلكئيب المُؤَرَّق[1] ؟

ويبدو أن هذه الجفوة لم تطل ويعود العاشقان إلى سابق عهدهما يتشاكيان الصبابة والهوى ، ولكن ولادة لم تلبث أن تتبدل ، فتظهر من الجفا ما تظهر وتذيق صاحبها عذاب الهجر على حين يبدى لها من التلطف والتذلل ما ينم لنا عن وَجْده وحبه .

ونحاول أن نجد سبباً لهذا الازورار فلا نعثر إلا على ماينقله لنا ابن بسام

---

(١) النفح ٢/١٠٩٨ .

من أن ابن زيدون أشار إلى جاريتها أن تعيد له صوتاً غنته فظنت أنه يغازلها من دونها فغضبت غضباً شديداً وكتبت إليه :

لو كنتَ تُنْصِفُ فى الهوى مابيننا لم تَهْوَ جاريتى ولم تَتَخَيَّرِ
وتركْتَ غُصْنًا مُثْمِرًا بجماله وجنحْتَ للغُصْنِ الذى لم يُثْمر
ولقد علمتَ بأَنّنى بدرُ السما لكنْ وَلِعْتَ لِشقْوتى بالمُشْترى

وهكذا تلعب الغيرة فى قلب المرأة وتكون سبباً من أسباب جفاء ولادة لعاشقها الشاعر الذى أخذ يبكى ويئن . ونحن لا نظن أن هذا السبب هو ، وحده ، الذى أدى إلى الجفاء ثم إلى القطيعة ، وقد يكون انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة قد ترك فى نفسها أثراً سيئاً وهى بنت خليفة أموى فجاءت الغيرة تذكى فى نفسها شتى الوساوس .

ومهما يكن من أمر فقد حصلت القطيعة ، وكانت ولادة هى البادئة ، وسمحت لعاشق جديد ، ليس بالشاعر المرهف هذه المرة وإنما هو الوزير الخطير ، أن يتقرب منها ، هو الوزير أبو عامر بن عبدوس ، ولسنا ندرى ما إذا كان ابن عبدوس ينتظر هذه الجفوة ليتقرب من الغادة التى أخذت أصداء حلاوتها ورنات أشعارها تتجاوبها أندية قرطبة اللاهية ، ولكن المقرى يجعل لقاءها لابن عبدوس وتحولها إليه على غير ميعاد فيقول : « ولما مرت بالوزير أبى عامر بن عبدوس وأمام داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشىء مما هنالك من الأقذار ، وقد نشر أبو عامر كميه ، ونظر فى عطفيه ، وحشر أعوانه إليه . فقالت له :

أَنت الخصيبُ وهذه مِصْرُ فتدفَّقَا ، فكلاكما بحرُ

فتركته لا يحير حرفاً ، ولا يرد طرفاً»[1] .

وهكذا كانت الضربة الصاعقة التى أصابت قلب الوزير فجعلته يتبعها بعد

---

(١) النفح ٢/١٠٩٩ .

أن صادته بحبائلها وبادلته بالعشق عشقاً وبالغرام غراماً .

ويشتد الأمر على ابن زيدون ، ويتألم أشد الألم ، ويتضرع لها ويتوسل ولكنها لا تلين ، فلا يجد بدًّا من أن يتوعد ابن عبدوس نفسه ويتهدده فيكتب له قصيدة نقرأ فى مطلعها هذه الأبيات[1] :

أَثَرْتَ هِزَبْرَ الشَّرى إذ ربضْ ونبَّهتَهُ إذ هدا فاغتمضْ
ومازلتَ تبسُط مسترسلاً إليه يدَ البغى لمَّا انقبض
حذارِ حذارِ فإن الكريمَ إذا سِيم خَسفاً أبى فامتعض
فإن سكونَ الشجاع النَّهُو سِ ليس بمانعه أن يَعَضْ
وإن الكواكب لا تُسْتَزَل وإن المقادير لا تُعترض[2]
أُعيذكَ من أن ترى مِنْزَعى إذا وترى بالمنايا انقبض

ولكن ابن عبدوس لم يصغ إلى تعريضه ووعيده ، وكذلك ولادة لم ترقّ لآلام حبه . ويعلم ابن زيدون أن منافسه يستخدم فى مراسلاته سيدة تزينه فى عينى صاحبته وتصف لها غناه وجماله ، فيستغل هذا الأمر ليكتب إلى ولادة رسالته الهزلية يسخر فيها على لسانها من ابن عبدوس ويتهكم عليه ويعبث به ويهجوه علها تفصم حبل وصالها مع خصمه . ولكن ولادة لم تفعل بل تغضب غضباً شديداً وتهجوه ببيتين هجاء مقذعاً فاحشاً . ويعظم الخلاف بينهما وتحتدم العداوة بينه وبين منافسه ابن عبدوس . وستكون هذه العداوة من جملة الأسباب التى أدت إلى سجن الشاعر .

ويستمر شاعرنا فى الأنين والشكوى ، وهنا يبدو لنا إخلاصه لحبيبته ، ويتمثل لنا حبه وألمه ، كما تتكشف لنا نفسية معشوقته المتهتكة ، وكيف أنها لم تكن فى

---

(١) الديوان ٢٣٧ .
(٢) النهوس : العضوض ، الشجاع : الذكر من الحيات .

حبها الأول إلا لاهية عابثة كما هى تلهو الآن وتتساقى كؤوس الهوى مترعة مع ابن عبدوس .

ويكتب لها ابن زيدون كثيراً من القصائد ذاكراً حبه ، متشوقاً لأيامه السعيدة ولكن ولادة تصمّ الأذن وتغلق القلب .

ولا بد لى هنا من ملاحظة ، هى أن أكثر غزل الشاعر بولادة قد قاله بعد أن ساءت العلاقة بينهما ، فهو شعر شكوى وألم وذكرى ، فأين هو ذلك الشعر الضاحك الذى وصف أيام غرامهما السعيد ، وما السر فى هذا الصمت عن وصف ذلك الحب ؟ هل بخلت قريحة الشاعر فى أيامه الهانئة ، أم أن حبه كان فى البدء حبًّا متهتكاً تافهاً ، ثم انقلب إلى حب حقيقى عندما ألهب البعاد قلبه فانبجس بالشكوى ووصف غرامه المعذب ؟ هذا ممكن . على أن فترة حبهما الهانئ كانت قصيرة ، ولم يحدثنا الشعراء كثيراً فى أدبنا العربى عن أفراح الغرام ، وأكثر غزلنا وصف لتباريح الهوى وعذاب الشوق وقسوة المحبوبة .

هذا وقد كانت معانى شاعرنا فى قصائده الغزلية هذه تحوم حول إثبات حبه وإخلاصه لولادة ، فليس لها إلا أن ترق وتعطف وتعود لأيام الحب الأول . إنها أصغت لكلام الحساد والوشاة ولم يرتكب ما يسمح لها بهذه القطيعة ، وهو ما يزال يذكرها دائماً لأنه فى حنين دائم . حول هذه المعانى وأضرابها كانت تدور أكثر قصائده الغزلية وكانت على شكل مقطوعات إلا أننا نجد بعض القصائد الكبيرة كقصيدته الشهيرة التى أرسلها إليها بعد خروجه من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية ، ومطلعها :

أَضحى التنائى بديلاً من تدانينا ونابَ عن طِيب لُقْيانا تجافينا

وكهذه القصيدة التى يقول فى مطلعها[1] :

لئن قَصَّرَ اليأْسُ منكِ الأَمل وَحَال تَجَنِّيكِ دُونَ الحِيَلْ

---

(١) الديوان ١٩٥ .

وراقَكِ سحرُ العِدا المُفْتَرَى وَغَرَّكِ زورُهُمُ المُفْتَعَلْ
فإنَّ ذِمامَ الهَوَى لن أَزَالَ أُبَقِّيه حِفْظاً كما لم أَزَلْ

ففيها تتمثل حرقة الشاعر وانكساره ورجاؤه لحب جديد يجني فيه سعادة النعيم الآفل .

الفصل الثانى

ابن زيدون فى بلاط بنى جَهْوَر وبنى عبَّاد

الشاعر فى بلاط أبى الحزم وسجنه :

لامرية فى أن ابن زيدون كان من أكابر الرجال الذين لم يكونوا فى معزل عن حوادث الفتنة . وقد كان ، كما يبدو من مدائحه لبنى جهور ، من مناصريهم . وليس بعيداً أن يكون ما أظهره من العطف على حركتهم هو الذى حدا بأبى الحزم ابن جهور إلى تقريبه واستخدامه ، إلى جانب ما توسّم فيه من الصفات الممتازة والأدب الرفيع . وقد نقل ابن بسام فى الذخيرة عن ابن حيان فى وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته فقال : « ونوّه بفتى الآداب وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوة السنية بقرطبة . والرياسة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلاطة ، وقوة العارضة ، والافتنان فى المعرفة وقدّمه للنظر على أهل الذمة ، لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعدُ على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف فى ذلك ، وغلب على قلوب الملوك »[1].

ويقول المؤرخون بعد ذلك إن أبا الحزم بن جهور قد تغير على ابن زيدون فسجنه، وقد قال ابن بسام فى صدد سجنه ما يلى : « وكان عَلِقه من عبد الله بن أحمد المكوى ، أحد حكام قرطبة ، ظفر أحجن ، أداه إلى السجن ، فألقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره من صنائعه »[2] .

ونحن لا ندرى الدوافع الحقيقية إلى هذا السجن ، وهناك من يرى أن ابن

---

(١) الذخيرة ج ٢ ص ٢٩٠ .
(٢) ديوان ابن زيدون ٤٠٩ .

عبدوس نسب إليه أنه يحاول القيام بثورة على أبى الحزم بن جهور ، فسيق من أجل هذا إلى المحاكمة ، وكان القاضى الذى تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى ، الذى ولىّ قضاء قرطبة فى المحرم سنة ٤٣٢ والذى أشار إليه ابن بسام فيما قدمناه ، فعندما عرضت قضيته عليه أمر بسجنه على الفور لموجدة قديمة بينه وبين الشاعر . فإذا افترضنا أن هذه المحاكمة قد جرت فى السنة التى ولى ابن المكوى قضاء قرطبة يكون الشاعر قد دخل السجن وعمره ثمانية وثلاثون عاماً .

على أن قصة محاكمته تأخذ شكلا آخر عندما يرويها ابن بسام فى ذخيرته ، ويرى أن السبب المباشر لسجنه التهمة التى ألصقت به ، وتتلخص فى أن ابن زيدون قد حاول استغلال إرث أحد الأسياد بعد وفاته ، فكان أن قيد إلى المحاكمة ، فحكم عليه القاضى ابن المكوى بالسجن ، إلا أن خبر هذه التهمة يدفعها ابن زيدون عن نفسه فى رسالة أرسلها إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم ، وهو مختف بقرطبة بعد هربه من السجن[١] ، ويثبت فيها أن هذا السيد كان لا يملك شيئاً حتى يستطيع أن يكسب إرثه . وقد أشار المستشرق (كور) إلى هذه التهمة عند الحديث عن سجنه ، وقال إنه سجن بعد المحاكمة ، ولكنه لم يفهم النص فهماً دقيقاً[٢].

ومهما يكن من أمر فسجن الشاعر كان نتيجة لما حاكه حساده حوله من مؤامرات ، وكان فى طليعة هؤلاء الحساد منافسه ابن عبدوس فاستطاع أن يوغر صدر الأمير ابن جهور عليه . وقد يكون هؤلاء الحساد قد أثاروا أيضاً ضده قضية حبه لولادة .

وهكذا يقضى الشاعر ما ينوف عن خمسمائة يوم سجيناً حائراً يستعطف ابن جهور ويناشده العفو دون فائدة ، محاولاً أن يجد تعزية فى ذكرى حبيبته التى كان ينظم الأشعار فى استعطافها وعتابها ويذكر أيام حبهما .

وقد نظم الشاعر فى أثناء سجنه عدة قصائد جميلة تغلب عليها رنة الاستعطاف

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .
(٢) كور ، كتابه عن ابن زيدون بالفرنسية ، ص ٥١ .

والحنين والعتاب منها هذه القصيدة التى نقرأ فيها هذه الأبيات فنعلم أن بياض الشيب قد وخط عارضيه قبل أن يخلع برد الشباب وقبل أن يبلغ ثلاثين ربيعاً ، فيقول[١] :

مَنْ يسأَلِ الناسَ عن حالى فَشَاهِدُها ... مَحْضُ العِيانِ الذى يُغْنى عن الخَبَرِ
لم تَطْوِ بُرْدَ شَبابى كَبْرَةٌ وأَرَى ... برقَ المشيبِ اعتَلَى فى عارِضِ الشَّعرِ
قبل الثلاثينَ إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ ... وللشبيبةِ غُصْنٌ غيرُ مُهْتَصَرِ
ها إنها لوعةٌ فى الصدر قادِحَةٌ ... نارَ الأَسى ومَشيبى طائرُ الشَّرَرِ

ومنها هذه القصيدة الشهيرة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، التى بعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبى حفص بن برد والتى جاء ذكرها فى قلائد العقيان ومطلعها :

ما عَلَى ظَنِّىَ بَاسُ ... يَجْرَحُ الدهرُ ويَاسُو[٢]

ولعله أيضاً قد نظم فى هذه الفترة هذه القصيدة الرقيقة القصيرة التى نقرأ فيها هذه الأبيات فيخيل لنا أنها قيلت فى السجن وابن زيدون لا يستطيع أن يطير إلى محبوبته ولادة :

وأَعْجَبُ كيفَ يغلِبُنى عدوٌّ ... رضاكِ عليه من أَمْضَى سلاح
ولمَّا أَنْ جَلَتْكِ لىَ اختلاساً ... أَكفُّ الدهر للحَيْنِ المُتاحِ
رأَيتُ الشمسَ تطلُعُ من نِقَابٍ ... وغُصْن البان يَرْفُل فى وشاحِ
فلو أَسْطيعُ طِرْتُ إليكِ شوقاً ... وكيفَ يطيرُ مَقْصُوصُ الجَنَاح ؟[٣]

---

(١) الديوان ص ٩٢ .
(٢) الديوان ص ١ .
(٣) الديوان ص ٢٦١ .

ومن سجنه أرسل ابن زيدون رسالته الجدية إلى ابن جهور يستعطفه فيها وأرسل معها قصيدة يمدحه بها ويستعطفه أيضاً ومطلعها[١] :

الهَوَى فى طلوعِ تلك النجوم والمُنَى فى هبوبِ ذاك النسيم

وقد ذكر فى هذه القصيدة أنه مكث فى السجن خمسمائة يوم فقال :

أفصبرٌ مئينَ خمساً من الأيا م ، ناهيكَ من عذابٍ أليمِ

وعلى هذا تكون هذه الرسالة قد أرسلت إلى أبى الحزم فى أواخر أيام سجن الشاعر :

لم يلق ابن زيدون من ابن جهور على رغم استعطافه له إلا الجفاء ، فلم يعف عنه وذهبت توسلاته عبثاً ، عندئذ عزم على الفرار ، ونزعم مع المستشرق كور[٢] أن أبا الوليد بن جهور قد ساعد الشاعر على الهرب ، فقد كان صديقه وكان يزوره فى سجنه . وقد أشار ابن بسام إلى ذلك عندما قال : إن أبا الوليد قد انتشل الشاعر من نكبته .

وهكذا يفر الشاعر من سجنه فى غضون سنة ٤٣٣ هـ ، بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته فى استعطاف أميره أبى الحزم ، ويقصد إشبيليه للمرة الأولى فيجد الشاعر فيها صدراً رحباً حيث أدناه المعتضد منه وقرّبه إليه وغمره بعطفه . ولكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة ، موطن صباه ومسرح هواه ، فكتب إلى حبيبته قصيدته النونية الخالدة التى استهلها بقوله :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقْيانا تجافينا

وختمها بقوله :

أوْلِى وفاءً ، وإن لم تبذلى صلةً فالطيف يُقْنِعُنا والذكر يكفينا

---

(١) الديوان ص ٤٩ .
(٢) كور : ابن زيدون ص ٦٨ .

وفى الجواب متاعٌ إن شفَعْتِ به بيضَ الأَيادى التى ما زلتِ تولينا
عليكِ منا سلامُ اللهِ ما بقيتْ صبابةٌ بكِ نخفيها فتخفينا

ولم يطق البقاء بعيداً عن هواه فعاد إلى قرطبة واستخفى بضاحيتها الزهراء وأخذ يراسل أصدقاءه مستشفعاً بهم لدى أبى الحزم ، فكتب رسالته الرائعة إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم[١] وفيها أبان سبب هربه بعد أن أعيته وسائل الاستعطاف وعاتب أستاذه لتقاعسه فى إخراجه من السجن ، ثم أتبعها بقصيدته الطائية البارعة الوحيدة فى الديوان ، وكنا قد أشرنا إليها[٢]. ولم يكتف الشاعر بهذا بل واصل مساعيه عند ولى العهد أبى الوليد .

بقى ابن زيدون مختفياً فى الزهراء ، وفى هذه الفترة كتب إلى حبيبته قصيدته العاطفية التى استهلها بقوله :

إنى ذكرتكِ بالزاهراءِ مُشتاقا والأُفْقُ طَلْقٌ ومرأَى الأَرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ فى أَصائله كأَنه رَقَّ لى فاعتلَّ إشفاقا[٣]

وفى صدد هذه القصيدة يقول ابن خاقان[٤] : « . . . فلما حلّ بذلك القرب . وانحلّ عقد صبره بعد الكرب . كرّ إلى الزهراء ليتوارى فى نواحيها ويتسلى برؤية ما فيها ، فوافاها الربيع قد خلع عليها بُرده ، ونثر سوسنه وورده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها . . . فتشوّق إلى ولاّدة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده وطَلَقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده » ، ثم يذكر ابن خاقان جميع القصيدة وهى فى خمسة عشر بيتاً .

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .
(٢) انظر ص ١٦٣ من هذا الكتاب .
(٣) الديوان ص ٢٥٧ .
(٤) قلائد العقيان ص ٨٢ .

وقد يكون الشاعر قد أهدى أبا الحزم بن جهور فى هذه الفترة بعض قصائد المدح والاستعطاف ، ولكن يصعب علينا تحديد تاريخها .

ويحظى ابن زيدون فى النهاية بعفو أبى الحزم وكان لابنه أبى الوليد الفضل الأول فى ذلك ، فتتوثق المودة بين الشاعر وأبى الوليد فيمدحه ويمدح أبا الحزم أيضاً . ثم لم يلبث أبو الحزم أن توفى فى السادس من محرم سنة ٤٣٥ فيرثيه بقصيدة مطلعها :

أَلم ترَ أَنَّ الشمسَ قد ضَمَّها القبر وأَنْ قد كفانا فَقْدَها القمرُ البدر[١]

وليس فى هذه القصيدة ما يدل على أنها تنبض بالعاطفة الصادقة . فالمطلع كما نلاحظ تقليدى يمهد السبيل فيه لمدح ابن المتوفى أبى الوليد الذى أحبه ولم ينس فضله فى سبيل خلاصه من السجن . والقارئ لهذه القصيدة يرى أن معانيها تتردد فى قصائد أخرى كتلك التى قالها فى رثاء المعتضد بن عباد[٢] وكأن الشاعر قد أراد من رثاء أبى الحزم تمكين مكانته عند ابنه أبى الوليد على طريقة (مات الملك عاش الملك !) ، فالشاعر يبكى الفقيد ولكنه يتطلع دائماً إلى البدر الذى حل محل الشمس التى ضمها القبر ، ثم يأتى بالأوصاف التقليدية التى لا تلمح فيها خلجات قلب شاعر متأثر .

الشاعر فى بلاط أبى الوليد :

بعد وفاة أبى الحزم سنة ٤٣٥هـ تقلد زمام الأمور ابنه أبو الوليد ، وهنا نرى نجم ابن زيدون يتألق ويعلو ، فيقربه أبو الوليد منه ويعينه للنظر على أهل الذمة ، فينظم الشاعر قصيدة جميلة تعبر عن بهجته ورجائه فيه يفتتحها بهذا المطلع :

ما للمُدام تديرها عيناكِ فَيميلُ فى سُكر الصِّبا عِطْفاكِ[٣]

---

(١) الديوان ص ١٥٠ .
(٢) الديوان ص ١٤٠ و ١٥٠ و ١٧٤ .
(٣) الديوان ص ٩ .

إلى أن يقول :

قلدنىَ الرأى الجميل فإنه حَسْبى ليوْمَىْ زينةٍ وعِراك

وفى هذه القصيدة تتجلى فرحة الشاعر بأميره وقد ارتقى أريكة السيادة والحكم فيصيح بأعلى صوته :

بُشراكِ يا دنيا وبشرانا معاً هذا الوزير أبو الوليد فتاك
يا أيها القمرُ الذى لسنائه وسَناه تعشوالسَّبْعُ فى الأَفلاك[١]
فَرَحُ الرياسة إذ ملكَت عِنانَها فَرَحُ العروس بصحة الإملاك[٢]

وينظم ابن زيدون فى هذه الفترة أيضاً قصيدة أخرى فى مدح مليكه أبى الوليد مطلعها[٣] :

أَجَلْ إنّ لَيْلَى حيث أَحياؤها الأُسْدُ مهاةُ حَمَتْها فى مراتعها أُسْدُ

ونرى الشاعر فيها يتدفق مدحاً لآل جهور ويعرّض بمطلب لعله الوزارة التى رفعه إليها مليكه أبو الوليد فيما بعد ، فيقول :

فديتُك إنى قائلٌ فمعرِّضٌ بأَوْطار نفسٍ منكَ لم تقضِها بعدُ
مُنًى كالشَّجا دونَ اللَّهاة تَعَرَّضَتْ فلم يكُ للمصدور مِن نَفْثِها بُدُّ[٤]
أَمثلىَ غُفْلٌ خاملُ الذكر ضائعٌ ضَياعَ الحسام العَضْب أَصدأَه الغِمدُ[٥]

---

(١) السناء بالمد : الرفعة والشرف ، وبالقصر : الضوء . تعشو : تقصد ، عشا النار وإلى النار : رآها ليلا فقصدها راجياً هدى أو قرى .

(٢) الأملاك : الزواج .

(٣) الديوان ص ١٧٧ ، وقد جاء فيه أنها قيلت فى مدح أبى الحزم بن جهور ، وهو خطأ .

(٤) الشجا : ما يعترض فى اللهاة أو الحلق .

(٥) العضب : القاطع .

بدأتَ بنُعْمى غَضَّةٍ إن تُوالِها فَحُسنُ الأَلَى فى أَن يواليَها سَرْدُ[١]
لعَمْرُكَ ماللمال أَسعى فإنما يرى المالَ أَسنى حظِّه الطَّبعُ الوغْدُ
ولكنْ لحال إن لَبِسْتُ جمالَها كَسَوْتُكَ ثوبَ النُّصْح أَعلامُها الحمدُ

وهكذا يضفى الشاعر عليه مدائحه ، ويخلع عليه قصائده التى تسمع خلال أبياتها رنة الإخلاص ، وتشيع فى تضاعيفها نبضات الحب لملك خلصه من السجن ثم رفعه إلى مراتب الوزارة والأمر والنهى ، فلا عجب أن نراه يصوغ ألفاظه درراً فى مدائحه فيقول :

مَلِكٌ لَذَّ جَنَى العيش به حيثُ وِرْدُ الأَمن للصدى عَلَلْ
يا بنى جهور الدنيا بكم حَلِيَتْ أَيامُها بعد العَطَلْ
نحن من نعمائكم فى زَهرةٍ جددت عهدَ الربيع المقتَبلْ
زَهَرَت أَخلاقُكم فابتسمتْ كابتسام الورد عن لؤلؤ طَلّ[٢]

وعندما نكب بنو ذكوان سنة ٤٤٠ هـ ، وهى الأسرة التى ينتسب إليها أستاذه القاضى أبو بكر بن ذكوان أرسل الشاعر إلى أبى الوليد مدحة[٣] نستشم من خلالها قلق الشاعر وعدم اطمئنانه لمستقبله . فهل بدأ يخشى أن يصيبه من الابن ما أصابه من الأب ؟ وما معنى هذا التضرع الذى نقرؤه خلال هذا البيت من القصيدة المذكورة ؟ :

لا تستجز وضعَ قدر بعد رفعكَهُ فالله لا يرفعُ القدر الذى تَضَعُ

ويبدو ، كما يشير بعض المؤرخين ، أن ابن زيدون قد أخذ منذ هذا التاريخ

---

(١) الألى : النعمة وجمعها آلاء . سرد : تتابع .
(٢) الديوان ص ٦٢ — ٦٥ .
(٣) الديوان ص ١٣٠ .

يحذر سيده وتعتوره الوساوس ، إذ رآه يصغى إلى أقوال الوشاة الراغبين بتنحيته عن مركزه.

وأكبر الظن أن سبب جفاء أبى الوليد لابن زيدون ما كان من أمر نكبة بنى ذكوان . أصدقاء الشاعر ، عندما حاول بعض منهم الوثوب على السلطان بقرطبة . فكان أن أحاطت بالشاعر الشبه ، فحاول أن ينفيها عن نفسه بالقصيدة المشار إليها .

وفى هذه الفترة يحدث أن يرسله أبو الوليد سفيراً إلى حضرة إدريس الحسنى بمالقة فيطيل الثواء هنالك ويتقرب من إدريس ، فيعتب عليه أبو الوليد ويصرفه عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس . وهكذا تنقطع أيام الشاعر عن قرطبة ، ولا يعود إليها خشية من أبى الوليد بن جهور الذى أرسل إليه يتهدده بعد أن تابع خصومه فى إيغار صدر أبى الوليد عليه ، فيقصد بلنسية ويستقبله أميرها أبو عبد الله ابن عبد العزيز استقبالا حسناً ، ولكنه لا يقيم فيها طويلا ، وقد أسف على فراق أبى عبد الله فى قصيدة نقرأ فيها هذه الأبيات :

راحت فَصَحَّ بها السقيم ريحٌ معطَّرةُ النسِيمْ
مقبولةٌ هبَّت قَبُو لاً فهى تَعْبَقُ فى الشَّميمْ
أَفضيضُ مسكٍ أَو بَلَنْ سِيَةٌ لَرَيَّاها نَمِيمْ
بلدٌ حبيبٌ أُفْقُهُ لفتًى يَحُلُّ به كريم

* * *

مهما ذممتُ فما زما نى فى ذِمامك بالذميمْ
زمنٌ كمألوف الرَّضَا ع يشُوق ذكراه الفَطيمْ
الله يعلم أَن حُبَّ لك من فؤادى فى الصميمْ
ولئن تحمَّلَ عنك لى جسمٌ فعنْ قلبٍ مقيمْ[1]

(١) الديوان ص ٣٥ .

وقد أم أيضًا طرطوشة ، فى أثناء وجوده بأقصى شرق الأندلس ، وهى مدينة قائمة على البحر الأبيض من أعمال بلنسية ، وفيها قال هذين البيتين متشوقاً إلى وطنه :

غريبٌ بأَقصى الشرق يشكر للصَّبا تحمُّلَها منه السلامَ إلى الغَرْب
وماضرَّ أَنفاسَ الصَّبا فى احتمالها سلامَ هَوًى يهديه جِسمٌ إلى قلب

ثم يقصد بطليوس فى الغرب فيلاقى من أميرها من الاحتفاء مالاقاه من أمير بلنسية ، وكان قدومه إليها فى عيد الأضحى سنة ٤٤١ هـ فهاجه أن يرى نفسه وحيداً فتذكر معاهده فى قرطبة ، وأخذ يعدّدها معهداً معهداً ، ويتحسر على أيامه الخوالى فى قصيدة نظمها فى هذه المدينة ، مطلعها :

خليلىَّ لافِطْرٌ يَسُرُّولا أَضحى فماحالُ من أَمسى مَشُوقاً كماأَضحى[1]

والقصيدة تنم عن شوق الشاعر وأساه ، وتصوّر ما أثارته الذكرى فى نفسه من الحب والحنين لمدينة ترعرع فيها حبه ، وقضى فيها أيام شبابه وسعادته وشقائه . وقد نظم أيضاً فى هذه المدينة قصيدة أخرى تصور صبابته وشوقه وهى أرجوزة مطلعها :

يادمع صُبْ ما شئتَ أَن تَصُوبا ويا فؤادى آنَ أَنْ تذوبا[2]

وقد لاقى ابن زيدون من المظفر صاحب بطليوس كل إكرام مما جعل لسانه ينطق بشكره ، وقد كتب إليه أيضاً قصيدة ورسالة نجدهما فى ديوانه[3] :

وهكذا لم يستطع هذا التنقل والرحيل أن ينسيه حبه أو يشغله عن هواه ، فظل فى حنين دائم وتلهف مقيم .

ولكن ابن زيدون كان يتطلع إلى بلاط أوسع مما رأى ليرضى طموحه ،

---

(١) الديوان ص ٥٤ .
(٢) الديوان ص ١٩ .
(٣) ص ١٢٢ و ص ٣٤٦ .

فصحت عزيمته على الرحيل مرة ثانية إلى المعتضد بن عباد بإشبيلية ، الملك الذى كان الأدباء يجدون فى كنفه عطفاً ورعاية . وفى سنة ٤٤١ هـ ، رحل إليه بعد أن تأكد برسائل أرسلها إلى المقربين من المعتضد وإلى المعتضد نفسه أنه سينزل على الرحب والسعة .

ابن زيدون فى بلاط بنى عباد :

ها هوذا ابن زيدون فى إشبيلية مرة أخرى يرعاه المعتضد ويحتفى به احتفالاً رائعاً ، وقد ولاه الوزارة ولقبه بذى الوزارتين وأسبغ عليه الخلع ، وقلده أمور دولته واستكتبه « فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد شرق الأندلس فيقال تأتى كتب من إشبيلية هى بالمنظوم أشبه منها بالمنثور»[1] . وقال ابن زيدون فى أميره أحسن المدائح نجدها منشورة فى ديوانه ومنها قصيدته التى قالها فى عيد الأضحى سنة ٤٤٥ ، ولعلها من خير مدائحه ومطلعها :

أَمَا فى نسيم الريح عَرْفٌ مُعرِّفُ
لنا هَلْ لِذاتِ الوَقْف بالجِزْع مَوْقف[2]

ولا يقتصر الشاعر فى هذه القصيدة على مدح المعتضد بل يبتدئها بمطلع غزلى رأى فيه ابن خاقان فى قلائده أنه حنين لولادة ، ونحن إذا ما تدبرنا هذا المطلع الغزلى لم نجد فيه ما يجعلنا نعتقد بأنه قيل فى ولادة . وهوفى جملته غزل تقليدى تفتتح به عادة قصائد المدح على الرغم مما يشيع فيه من أصداء خافتة لشاعر عرف العشق واكتوى بناره .

وقد بقى ابن زيدون وزير المعتضد وشاعره المفضل إلى أن توفى سنة ٤٦١ هـ ، فلما تولى الملك ابنه المعتمد (وكان له من العمر ثلاثون عاماً) حظى بالمكانة نفسها التى كان يتمتع بها عند أبيه ،ولا عجب فى ذلك فقد رأينا المعتمد شاعراً محبًّا للأدباء

---

(١) الذخيرة ١ ص ٢٩٠ .
(٢) الديوان ص ٢٣ ، الجزع : منعطف الوادى . الوقف : السوار من العاج وغيره .

وكان بلاطه قبلة كل أديب وموئل كل فنان عبقرى . وقد حاول أعداء ابن زيدون بعد وفاة المعتضد الإيقاع به ولكن المعتمد لم يصغ لأقوال هؤلاء الأعداء ، فبقى أثيراً عنده ، وقد حفظ الشاعر لمليكه هذا الموقف النبيل فمدحه بقصيدة عرّض فيها بحساده ونعتهم بالبغاة ومطلعها :

الدهرُ - إن أملى - فصيحٌ أعجمُ يُعْطى اعتبارى ما جهلتُ فأعلمُ

إن الذى قَدَر الحوادثَ قَدْرَها ساوى لديه الشهدَ منها العلقمُ (١)

ولابن زيدون مدائح كثيرة جليلة غير هذه ، وله معه مداعبات ومساجلات نجدها فى ديوانه .

وهكذا فقد كانت حياة ابن زيدون فى عهد المعتمد مفعمة بالمسرة والهناءة ، ولم يكن ليشجيها إلا أطياف حب قديم مقيم . وكانت إشبيلية تضمه بشعرها وغنائها ولهوها وخمرها وتبسط أمامه لهو الحياة وعز السلطان ، ويكفى أنه كان فى بلاط المعتمد وقد اجتمعت فيه مباهج الدنيا ولذاتها .

ولكن هذه الحظوة العظيمة التى تمتع بها ابن زيدون عند المعتمد لم تستطع أن تنسيه قرطبة أو أن تحد من شوقه إليها ، ولعل الشاعر كان يغرى مليكه بالاستيلاء عليها ، وحدث سنة ٤٦٢ هـ أن المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، قد هاجم قرطبة يريد احتلالها فاستنجد ملكها أبو الوليد ابن جهور بالمعتمد فأرسل جيشاً يقوده أحد أبنائه . فما كان من جيش المأمون إلا أن ينسحب بينما نزل جيش بنى عباد فى ضاحية المدينة وأخذ يتصل بأهل قرطبة حتى ثار هؤلاء على ابن جهور واستولى الجيش الإشبيلى على قرطبة ونادى أهلها بالمعتمد ملكاً عليها .

وهكذا يعود ابن زيدون مع مليكه إلى قرطبة قرير العين برؤية أهله ووطنه فيرتفع حظه ويزداد إقبال الدنيا عليه ويبلغ من الحظوة عند المعتمد ما يجعل وزيريه ابن مرتين وابن عمار يكيدان له ويسعيان فى إبعاده . وتساعدهما الظروف ،

---

(١) الديوان ص ١٨٨ .

فتحدث فتنة فى إشبيلية ويضطر ابن عباد لإرسال جيش كثيف بقيادة ابنه سراج الدولة بن عباد ، إلا أن ابن مرتين وابن عمار يسولان للمعتمد أن يرسل معه ابن زيدون ، فى إرساله نجاح لمهمة سراج الدولة وحقن للدماء لما له من المحبة فى قلوب أهل إشبيلية . وفى الواقع لم يكن يقصد الوزيران من وراء ذلك إلا إبعاد ابن زيدون ليصفو لهما الجو وينفردا بالمعتمد بعد أن ساءتهما الشعبية الكبيرة التى يتمتع بها الشاعر فى قرطبة .

وهكذا يغادر ابن زيدون قرطبة على الرغم من مرضه برفقة سراج الدولة والجيش قاصدين إشبلية وذلك فى الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، ويترك ابنه أبا بكر بن زيدون خلفاً له فى الوزارة ، ولكن ابن مرتين وابن عمار ما زالا يسعيان لدى المعتمد حتى أصدر أمره إلى أبى بكر بن زيدون بأن يلحق بأبيه إلى إشبيلية ، فكأن ابنه قد لحقه ليشهد موته ، ويعتنى بتشييعه ودفنه فيها . وفى الواقع فقد كانت هذه الرحلة سبباً فى تعجيل موته ، إذ ساءت حالته الصحية يوماً بعد يوم ، فهلك بعيداً عن المدينة التى أحبها ، فى الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة ، وكان لنبأ موته رنة أسى فى قرطبة ، وحزن عليه أهلها حزناً كبيراً . وصمت ذلك الصوت الذى غنى حياته ، بآلامها وحبها وعزها ، شعراً خالداً .

الفصل الثالث

آثار ابن زيدون وأدبه

الديوان :

لابن زيدون ديوان نشره فى القاهرة سنة ١٩٣٢ الأستاذان كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة[١]. وإننا لنجد فى نهاية هذه الطبعة قسماً من رسائل الشاعر مع طائفة من الأبحاث عن حياة ابن زيدون وشعره بقلم طائفة من الأدباء القدماء والمعاصرين .

ومع أن الأستاذين كيلانى وخليفة قد بذلا جهداً مشكوراً فى طبع هذا الديوان وكان لهما فضل السبق فى أولية نشره ، إلا أنهما لم يتبعا فى عملهما أسلوب النشر العلمى الحديث ، فلم يصفا المخطوطات التى اعتمدا عليها ، ولم يذكرا مختلف الروايات فى الهوامش ، ولم يثبتا الفهارس المختلفة التى تيسر سبيل البحث والمراجعة . وقد اعتمدا فى نشر هذا الديوان ، كما علمنا ، على النسختين الخطيتين رقم ٤٩٦ أدب ورقم ٥٥٥ أدب ، المحفوظتين بدار الكتب المصرية بالقاهرة[٢].

والديوان ، كباقى دواوين الشعر العربى ، ليس فيه ما يدل على الدافع والظروف التى قيلت فيها القصائد إلا بعض الإشارات العابرة فى تقديم بعضها . وقد

---

(١) طبع هذا الديوان أيضاً فى بيروت سنة ١٩٥١ ، والطبعة ناقصة ، وهى بإشراف مكتبة صادر . وفى سنة ١٩٥٧ قام الأستاذ على عبد العظيم مدير إدارة المخطوطات بدار الكتب المصرية بالقاهرة بطبع ديوان ابن زيدون طبعة علمية مع رسائله النثرية ، وقد شرح قصائده ونصوصه وحققها وعلق عليها ووضع له مقدمة طويلة عن حياة الشاعر وشعره ونثره ، ويؤسفنا أننا لم نطلع على هذه الطبعة إلا بعد إعداد بحثنا وكان اعتمادنا فيما دوناه على طبعة الأستاذين كيلانى وخليفة .

(٢) أشار المستشرق بروكلمان إلى هاتين المخطوطتين فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » الملحق الأول ص ٤٨٠ ، وأشار أيضاً إلى مخطوطة للقصيدة الشهيرة محفوظة فى أكسفورد . ولديوان ابن زيدون ، عدا المخطوطتين السابقتين ، نسختان خطيتان محفوظتان أيضاً بالقاهرة : إحداهما النسخة رقم ٧٦ شعر تيمور بالمكتبة التيمورية ، والأخرى النسخة رقم ٤٤٣ أدب بمكتبة الأزهر .

توالت القصائد أيضاً دون نظام ، ولم يراع فيها الترتيب التاريخى ، وهذا عيب من عيوب دواوينا الشعرية يجعل دراسة شعر الشاعر والغوص على أسرار عبقريته محاطاً بكثير من الصعوبات .

ويلاحظ أن الأغراض الأساسية التى عالجها الشاعر هى الغزل والمديح والاستعطاف ، ولعمرى إنها لموضوعات تتجاوب مع قصة حياته . ونرى أن المديح يشغل معظم صفحات الديوان ويليه الغزل ثم الأغراض الثانوية الأخرى .

الرسالة الهزلية :

طبعت هذه الرسالة لأول مرة مع ترجمة لاتينية سنة ١٧٥٥ فى مدينة ليبسك من قبل المستشرق رايسك . وطبعها المستشرق هيرت مرة ثانية فى إيينا سنة ١٧٧٠م. وقد شرحها ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م وطبعت فى القاهرة سنة ١٢٧٨ هـ تحت عنوان « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » ، ولهذا الشرح عدة مخطوطات موزعة فى المكتبات الأوربية .

وقد ذكرنا أنّ ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لمنافسه ابن عبدوس يهزأ به ، وقد جاءت رسالة طريفة جمعت بين أفانين التهكم وضروب المعرفة . وساق فيها طائفة من الأمثال والأبيات المنثورة من الشعر ، وذكر فيها الكثير من الأحداث والأعلام وأسماء الرجال .

الرسالة الجدية :

لهذه الرسالة عدة مخطوطات أيضاً موزعة فى المكتبات الأوربية وفى مكتبات القاهرة والموصل . وقد شرحها الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . فى كتاب سماه « تمام المنون فى شرح رسالة ابن زيدون » . ولها شرح ثان طبعه مصطفى عنانى بالقاهرة سنة ١٩٠٦ فى كتاب سماه « إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون » وطبعت أيضاً بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٩ م بعنوان « الدر المخزون فى شرح رسالة ابن زيدون » كما طبعت فى بغداد سنة ١٣٢٧ هـ .

وقد مرّ بنا أن ابن زيدون قد كتب هذه الرسالة وهو فى السجن ، يستعطف بها أبا الحزم بن جهور ليعيد إليه حريته ، وهى لا تقل جمالا عن سابقتها ، نلمح خلال سطورها الانفعال والقلق .

والرسالة مفعمة كسابقتها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، وهى تزخر بالأمثال ونثر الشعر القديم واقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث .

خصائص الرسالتين الأسلوبية :

هاتان الرسالتان قويتا الصلة بحياة الشاعر ، فالرسالة الهزلية تتصل بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب ومنافسة ، والرسالة الجدية تتصل بحياته السياسية وما رافقها من سجن واستعطاف .

ونلاحظ أن الرسالة الأولى قد استطاعت أن تبلغ ما تريد من السخرية بمنافسه ابن عبدوس على رغم تكلفها والتزام السجع والصناعة فيها ، وقد تصل السخرية فيها أحياناً إلى حد سلاطة اللسان فتبعد عما يقتضيه التهكم من رقة ودقيق تورية ، ولهذا فهى تتصف بالانفعال القوى الصريح المعبر عن سخط الشاعر وألمه من منافسه الذى لعب بقلب من أحبّ ولعبت هى به .

أما الرسالة الجدية فنزعم أنها لم تستطع أن تبلغ هدفها فى استعطاف أبى الحزم ابن جهور ، لما فى أسلوبها من تكلف وغريب ، ولما احتوته من الأسماء التاريخية والإشارات الأدبية التى تلهى القارئ وتجعله ينصرف إلى استقصاء معانيها وفهم مقاصدها وحلّ رموزها . أضف إلى ذلك أن موضوع الاستعطاف يقتضى دقة فى العاطفة وتلهفاً حارًّا يرسم المستعطف فى عذاب وضيق ، ولعمرى إن هذه الصفة لا تظهر جلية فى هذه الرسالة ، وإنما الذى يسيطر عليها الصنعة والمعرفة التى تتجلى خلال عباراتها ، فتأتى الرسالة متناً مشحوناً بالأمثال والوقائع والأشعار ، لا صرخةً تنبض بالحسرة والتلهف والألم الدفين .

والرسالتان تعكسان خصائص أسلوب ابن زيدون فى النثر ، فهو لا يلتزم السجع

دائماً . وهو لا يلتزمه فى الرسالة الجدية بينما نراه يلتزمه تقريباً فى الرسالة الهزلية ، ويبدو إنشاؤه فيهما قليلاً ضئيلاً إذا ما قيس إلى ما يذكره من أمثال العرب وأسماء رجال التاريخ والوقائع الشهيرة .

ثم هو يكثر من الجمل المترادفة على معنى واحد ، ويظهر جلياً على أسلوبه خصائص أسلوب أهل عصره الذين جروا على طريقة ابن العميد والصاحب بن عباد والهمذانى والخوارزمى ، فنراه يعمد إلى نثر الأبيات الشهيرة من الشعر وتضمينها فى كتابته ، والاستشهاد بعدد كبير منها دون الإشارة إلى قائلها ، ثم إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث بلفظهما أو ببعض التغيير ، وتضمين الحكم والأمثال بنصها أو بتحوير فيها .

وعلى الجملة فأسلوب ابن زيدون فى نثره قوى جزل كشعره ، وقد قلنا إنه لا يتقيد بالسجع ، ولكنه لا يترك الموازنة ، فجمله متشابهة فى النغمة ، متناسقة فى الطول . وقد حظيت هاتان الرسالتان بشهرة كبيرة فى الأدب العربى لبراعة أسلوبهما ولما احتوتا من أفانين القول وحوادث التاريخ وأسماء رجاله ، ولما ضمتاه من الشعر الجيد والأمثال المناسبة . وإذا كنا لا نشعر عند قراءتهما بما نشعر عند تلاوة شعره من هزة وطرب ، فنحن لا نستطيع إلا أن نعجب بهذا النثر لما يبدو فيه من علم وسعة اطلاع وجزالة ، ويبقى ابن زيدون شاعراً أكثر منه ناثراً .

أغراض ابن زيدون الشعرية :

طرق ابن زيدون أكثر أغراض الشعر العربى المعروفة لعهده ، وأجاد أكثر ما أجاد فى فنون الغزل والمدح والاستعطاف ، وقد كان شعره صدى لحياته ، فجاء غزله معبراً عن تجربته الغرامية ، وجاء مدحه متجاوباً مع حياته السياسية ، معبراً عن عزها واضطرابها ، وكان استعطافه يعتور الغزل حيناً فإذا به استعطاف عاشق ذليل ، ويعتور المدح حيناً آخر فإذا به استعطاف أمير ذل يتطلع إلى المجد الذى استلب منه .

ويعد ابن زيدون من شعراء عهد التحرر ، وهو الطور الذى أخذ فيه الشعراء

يصدرون عن نفوسهم و يمثلون البيئة ومظاهرها دون أن يتخلوا مع هذا عن التقليد . وقد اتسم شعره بحب طبيعة الأندلس و بخاصة قرطبة ، فجاء وصفه لها ممزوجاً بقصة حبه التى أثرت فى نفسه تأثيراً كبيراً .

فما هى أهم خصائص هذه الأغراض الشعرية ؟

الغزل :

شعر ابن زيدون الغزلى يكاد يكون النغمة التى تظهر فيها أصالة الشاعر ، فهو شعر انبجس من صميم قلبه ، وعبر عن حبه وآلامه ، ولئن كان شعر الحب عند ابن زيدون أقل من شعر المدح ، فقد كان يفوقه إخلاصاً وجودة ، لأنه كان صدًى لانفعالاته وتعبيراً عن خفقات قلبه . ونكاد ، بعد أن علمنا قصة حياة الشاعر ، نستطيع أن نميز أطوار هذا الشعر ، فقد علمنا حبه لولادة ثم هجرها له ثم يأسه منها وحنينه الدائم لها . وقد جاء شعره ممثلاً لهذه الأطوار ، ولكنه بقى على الغالب ممثلاً لطور يأسه وحنينه الدائم وذكراه الحية لهذا الحب . فقد لعب دور الهجر فى قلبه لعباً قاسياً شديداً وفجّر فيه شعر الحرقة واللوعة وشعر الذكرى والحنين ، أما أيام هناءته وسعادته فقد كانت قصيرة ، ولذا لا نجد له إلا قليلا من المقطوعات التى عبرت عن هذه الهناءة ، فى ألفاظ بسيطة وتراكيب لينة ومعان لم تلهبها تجربة الحب الصادق ولوعة الفراق والهجر كقوله :

هلْ لداعيك مجيبُ ؟ أَم لشاكيكَ طبيبُ ؟
يا قريباً حين ينأَى حاضرًا حين يغيبُ !
كَيف يسلوكَ مُحِبٌّ زانه منكَ حبيبُ ؟
إنما أَنتَ نسيمٌ تَتَلَقَّاهُ القلوبُ[1]

---

(١) الديوان ص ٢٧٣ .

وكقوله :

متى أَبثُّكَ ما بى يا راحتى وعذابى
متى ينوبُ لسانى فى شرحِهِ ، عن كتابى
الله يعلمُ أَنى أَصبحتُ فيك لما بى
فلا يطيبُ منامى ولا يسوغُ شرابى[1]

وكقوله :

يا ليلُ طُل ، لا أَشتكى - إلا بوصل قِصَرَكْ
لو بات عندى قَمرِى ما بتُّ أَرعَى قمركْ
يا ليل خَبِّرْ ؛ أننى أَلتذُّ عنه خبَرَكْ
باللهِ قلْ لى : هلْ وَفَى ؟ فقال: «لا ،بل غَدرَكَ»![2]

فمثل هذه الأبيات ، يحببها إلى النفس رقتها وما تعكسه من قلق يغمره الرضى ، ولكنها لا تلهب النفس لأنها لا تصور حبًّا عميقاً مقيماً .

هذا التصوير علينا أن ننشده فى الأشعار التى قالها أيام الهجر واليأس والذكرى ونجد شاعرنا قد اقتصر فى أول أيام الفراق على شكوى جياشة باللوعة والحسرة ، ونلمح هذه الشكوى خلال ألحان يردد فيها أمثال هذه الأبيات فيقول :

كم ذا أُريدُ ولا أُرادْ يا سُوءَ ما لَقىَ الفؤادْ!
أُصفِى الوداد مُدَلَّلاً ، لم يَصْفُ لى منه الودادْ
يَقْضِى علىَّ دلالُهُ - فى كلِّ حينٍ - أَو يكادْ

(١) الديوان ص ٢٦٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧٢ .

كيف السلوُّ عن الذى مثواهُ ، منَ قلبى ، السَّوَادْ؟
مَلَكَ القلوبَ ، بِحُسْنِهِ فلها إذا أَمرَ انقيادْ
يا هاجرى كمْ أَستفيـ ـدُ الصبرَ عنكَ فلا أُفادْ
هلاّ رَثَيْتَ لمن يَبيـ ـتُ وَحَشْوُمُقْلَتِهِ السُّهادْ؟
إن أَجْنِ ذنباً فى الهوى خطأً فقد يَكْبُو الجوادْ
كان الرِّضَى ، وأُعِيذُهُ ، أَن يُعْقِبَ الكونَ الفسادْ[1]

ثم يشتد على شاعرنا ظلام الهجر والبعاد فإذا به يئن فى شعره ويستصرخ محبوبته فى لحن كله ارتجاف وذكرى . ويدخل السجن ، وهو على هذه الحال . وتعتلج فى جوانحه تباريح الهوى . ويأخذ منذ هذا التاريخ يرسل الشعر مناجاة وذوب نفس معذبة .

هذه النفس المعذبة المحبة لم تنس غرامها ، بل لعلها كانت تجد فى النسيان لتلك النشوة الحبيبة التى يشعر بها المحب المخلص ، ولهذا ما كانت لترغب فى النسيان بل ما كانت لترغب فى الاستسلام إلى اليأس :

كنا نرى اليأْسَ تُسلينا عوارضُهُ وقد يئسنا فما لليأْس يُغْرِينا
بنتم وبنَّا فما ابتلتْ جوانحُنا شوقاً إليكم وما جَفَّتْ مآقينا
نكادُ حينَ تناجيكُمْ ضمائرُنا يَقْضِى علينا الأَسَى لولا تَأَسِّينا

وعلى هذا اللحن من الغزل الرقيق صاغ ابن زيدون أكثر شعره الخالد ولا سيما فى قصيدته النونية الشهيرة التى أشرنا إليها ، وفى قصيدته القافية التى جعل الطبيعةَ فيها مسرحاً لنجواه الغرامية فقال فى مطلعها :

---

(١) الديوان ص ٢٦٤ .

إنى ذكرتكِ بالزهراء مشتاقَا والأُفق طلقٌ ومرأى الأَرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله كأَنه رقَّ لى فاعتلَّ إشفاقَا
والروضُ عن مائه الفضىِّ مبتسمٌ كما شقَقتَ عن اللباتِ أَطواقَا

هذا الشعر الغزلى لم يكن كله جديداً ، فقد عزف ابن زيدون فى معانيه وصياغته على قيثارة القدماء ، إلا أنه استطاع أن يمنحه لوناً خاصًّا عندما جعله شعراً للحنين وللذكرى ، ولهذا فالميزة الأولى لغزل ابن زيدون هى فى هذه القفزة التى كان يقفزها إلى الماضى فيصور لنا بالمقارنة سعادة الحب الآفل وعذاب الهجر المقيم ، ثم يمنحنا لحناً للمناجاة يشيع منه الإخلاص ويصوّر حبًّا لا يفنى فى قلب عاشق يحيا بالذكرى ويبقى للحب .

المدح :

مدْح ابن زيدون متصل بحياته السياسية أشد الصلة ، ولذا إذا تقصّينا مدائحه استطعنا أن نرسم جانباً هامًّا من هذه الحياة ، فقد اتصل ابن زيدون أول ما اتصل بأبى الحزم بن جهور ، ثم لم يلبث هذا الأمير أن قذف به إلى السجن ، كما رأينا ، فأخذ الشاعر يرسل إليه مدائحه مستعطفاً مسترحماً كما يرسل إلى ابنه أبى الوليد ، وهذه المدائح تتصف بصفة الاستعطاف ويبدو فيها الشاعر شاكياً يريد أن يدفع عنه التهمة التى أودت به إلى السجن كما فى قصيدته التى أرسلها إليه فى نهاية الرسالة الجدية ، وفيها نقرأ هذه الأبيات :

أَيُّهٰذا الوزيرُ ها أَنا أَشكو والعصا بدءُ قَرْعها للحليم[1]
ماعَنَانا أَن يأْنفَ السابقُ المَرْ بَطَ فى العِتْق منه والتَّطْهِيم[2]

---

(١) فى هذا البيت تضمين للمثل العربى : « إن العصا قرعت لذى الحلم » ، وهو يضرب للذكى إذا نبهته انتبه .

(٢) السابق : الفرس ، العتق فى الخيل : الكرم ، والتطهيم : الجمال فيها .

وبقاءُ الحسام فى الجَفْن يَثْنِى منه بَعْدَ المَضَاءِ والتَّصْميم
أَفَصَبْرٌ مئينَ خمساً من الأَيا م ؟ ناهيكَ مِنْ عذابٍ أَليمِ !
ومُعَنًّى من الضَّنَى بِهَنَاتٍ نَكَأَتْ بالكُلوم قَرْحَ الكُلُوم[1]
سَقَمٌ لا أُعَادُ فيه وفى العَا ئدِ أُنْسٌ يَفِى بِبُرْءِ السَّقِيم
نارُ بَغْىٍ سَرَى إلى جنة الأَمْ نِ لَظَاهَا ،فأَصبحتْ كالصَّرِيم[2]
بأَبِى أَنتَ! إنْ تشأْ ، تَكُ بَرْدًا وسلاماً كَنارِ إبراهيمِ

ويضرب الشاعر على هذا الوتر فى أكثر مدائحه لأبى الحزم ، ولكنه يمزجها بتعداد مآثره وصفاته فى شىء من الفتور ، وطبيعى ألا نرى الشاعر مندفعاً فى مدح أميره وهو الذى ألقى به إلى السجن .

أما مدائحه فى أبى الوليد بن جهور فهى تنم عن إخلاص الشاعر وحبه له ، وليس هذا عجيباً فنحن نعلم فضل أبى الوليد على الشاعر فى خلاصه من السجن ، ونعلم الحظوة الكبرى التى نالها بالقرب منه ، بعد وفاة أبى الحزم .

ثم تأتى بعد ذلك مدائحه التى قالها فى إشبيلية وأهداها خاصة للمعتضد والمعتمد ، ففى هذا الدور من حياة ابن زيدون ترتفع مدائحه إلى ذروة كمالها الفنى وتعبر عن صادق عواطفه نحو هذين الملكين اللذين أحسنا رعايته وبوآه أرفع المناصب .

وللشاعر مدائح أخرى قالها فى بعض ملوك الطوائف ووزرائهم عندما زارهم فى أثناء تجواله فى طرطوشة أو بطليوس أو بلنسية وقبل أن يستقر فى بلاط بنى عباد ، وهى مدائح يبدو عليها النضج والإخلاص ، وله أيضاً مدائح أخرى فى بعض أصدقائه وأساتذته .

---

(١) هنات : الشدائد ، الكلوم : الجروح .
(٢) كالصريم : كالليل فى السواد بعد الاحتراق .

هؤلاء هم أشهر ممدوحيه فما هى الصفات العامة التى سيطرت على مدح الشاعر ؟

لم يكن مدح ابن زيدون طلباً للمال وإنما كان طلباً للجاه ، كما كان فى بعض المواقف تعبيراً عن عاطفته ، وقد جرى فيه على ما ألفه الأقدمون من ركوب البحور الطويلة واللجوء إلى النظم الرصين الجزل . واستهل على الغالب مدائحه بالغزل ثم أخذ يعدد محامد الممدوح ومآثره متبعاً الطريقة التقليدية ، ولذا نجده مترسماً فى مدحه أساليب القدماء لا يحيد عنهم كثيراً ، ولا تبدو عبقرية الشاعر إلا فى القصائد التى أملتها العاطفة ، ومن هنا كانت مدائحه فى المعتضد والمعتمد وبعض مدائحه فى أبى الوليد أفضل شعره فى هذا الغرض .

الاستعطاف والشكوى :

وشعر الاستعطاف والشكوى على قلته يُعدّ من الأغراض التى أجاد بها شاعرنا وصدر بها عن عاطفته ، وهذا الشعر مبثوث خلال غزله ومدحه ، كما قلنا ، وقلما انفرد فى قصائد خاصة ، إلا ما نجده فى تلك القصيدة الخالدة التى أرسلها إلى صديقه أبى حفص بن برد والتى كانت درةً فى نسجها ونغمتها الصافية الهادئة المتألقة .

بقية الأغراض :

يبقى ابن زيدون فى أغراضه الأخرى ، كالرثاء مثلاً ، ضيق النفس فاتر العاطفة ، ورثاؤه قاله على الغالب فى بعض ممدوحيه أو من يلوذ بهم فجاء بكاءً على الراحل ولكنه وسيلة لمدح المقيم كما فعل فى رثاء أبى الحزم بن جهور[١] ، أو فى رثاء أم المعتضد وابنته ، أو فى رثاء المعتضد نفسه[٢] .

على أنه ينبغى أن نشير فى النهاية إلى عدد من المقطوعات قالها فى مناسبات مختلفة كالتهانى والإخوانيات . وقد نظم أيضاً عدداً من المقطوعات الخفيفة فى

---

(١) الديوان ص ١٥٠ .
(٢) انظر الديوان ص ٧٥ و ١٤٠ و ١٧٤ .

الألغاز والأحاجى أجابه عليها المعتمد محاوراً وفاكّاً لمعمياتها ، ولكنه فى جميع هذه الأغراض الثانوية لم يصدر عن حسه ولم يستلهم شاعريته .

خصائصه الفنية :

إن الخاصة الأولى التى ميزت شعر ابن زيدون هى أن هذا الشعر شديد الصلة بحياة الشاعر . فقد رأينا ابن زيدون محبّاً لولادة مشغوفاً بها ، ورأيناه أيضاً خلال هذا الحب يتقلب فى مناصب الحكم والوزارات ويندس فى حمأة السياسات ، ثم يُلقى به فى السجن ، ثم تعود إليه الحرية ويواصل لعب دوره فى قصور الأمراء مقرباً منهم معززاً فى ظلال عطفهم ورعايتهم ، أو بعيداً عنهم طريداً . فجاء شعره صورة لهذه الحياة التى يتوزعها الحب والسلطان . فيمكننا إذاً أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : فهو يبدو لنا شاعراً ذاتيّاً من ناحية ، ويبدو لنا شاعر بلاط ؛ من ناحية أخرى ؛ فى أى الوجهين تتجلى عبقرية ابن زيدون ؟ وهل تتجلى فى الوجهين معاً ؟ وهل خضع للشروط التى يجب أن يتصف بها هذان الشاعران اللذان اجتمعا فى نفسه ؟

أما الشاعر الذاتى فيتجلى فى غزله ولهوه واستعطافه وشكواه . ولئن كانت الحياة التى عاشها قد فرضت عليه هذا اللون من الشعر فإن تجاربه النفسية قد عدّتها ومنحتها صورتها الجديدة . فى هذه الأغراض لم ينظم شاعرنا الشعر لإرضاء شخص آخر غير نفسه ، ولئن كان يرغب من وراء غزله إرضاء تلك التى يحبها ويود استعطافها ، فذلك لأنه يرى فيها صدى لانفعالاته وسبباً لبقائه فى هذه الدنيا . إنه محب ، ونحن نعلم حبه لولادة ، هذا الحب الذى تراءى لنا لاهياً عابثاً فى مطلعه ، ثم لم يلبث أن انقلب إلى جذوة نار تأكل قلب الشاعر عندما شعر بالازورار واللعب والاستهزاء يصيبه منها ، وهنا بدأت تجربة الإخلاص ، لأنه بدأ يشعر خلالها بلذة قد تعوّض عليه ما فاته من حب ضائع ، إنه بقى يذكرها طول حياته . حين لم تحفظ ودّه ، وتغيرت عليه ، وأنزلت فى قلبها منافسه . هذه الذكرى الدائمة الطويلة تمنح هذا الشعر الذاتى لوناً يحببه إلى نفوسنا . ففيه الصدق ، وفيه شىء آخر ليس بالأنين الممض الذى اعتدنا سماعه من شعراء الغزل العذرى ،

إنه بكاء ولكننا لا نسمع النحيب ، ولا تعترينا الكآبة . إنه شوق ولهفة ، إنه شعر يرسم أجواء الماضى . . . فخاصة غزل ابن زيدون فى أنه يرسم لك ذلك الجو الضاحك الآفل ، فتتحسر عليه وتتلهف .

ومن يسمع الأبيات الآتية يدرك معنا أنها تعبر عن هذه الحسرة وهذه اللهفة خير تعبير على رغم سذاجة المعانى التى تضمنتها ، يقول :

أَضحى التنائى بديلاً من تدانينا ونابَ عن طِيب لُقيانا تَجَافينا
من مُبْلِغُ المُلْبِسِينا بانتزاحِهِمُ حزناً مع الدهر لا يَبْلى ويُبلينا
أَنَّ الزمانَ الذى مازالَ يُضْحِكنا أُنْساً بقُرْبِهِمُ قدْ عادَ يُبكينا
غِيظَ العِدامِنْ تَسَاقِينا الهوى فَدَعَوْا بأَنْ نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا

* * *

ياسارىَ البرق غادِ القَصْرَ واسْقِ به مَنْ كان صِرْفَ الهَوَى والوُدِّ يَسْقِينا
ويا نسيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنا مَنْ لَوْ على القُرْبِ حَيَّا كانَ يُحْيينا

* * *

يا جنةَ الخُلْد أُبْدِلْنا بِسِدْرَتِها والكَوْثَرِ العَذْبِ زَقُّوماً وَغِسْلِينا
كأَننا لم نَبِتْ والوَصْلُ ثالثُنا والسَّعْدُ قد غَضَّ مِنْ أَجفانِ واشِينا
سِرَّانِ فى خاطر الظلماء يَكْتُمُنَا حتى يكادَ لسانُ الصبح يُفْشِينا

* * *

هذه أبيات تقع فى نفوسنا موقعاً حسناً ، فما هى هذه الأمور التى جعلتها مع باقى القصيدة تسهو بنا ؟ أهى المعانى ونحن نراها بسيطة ساذجة أكثرها مطروق ، أم هذه الديباجة السهلة ، البعيدة عن التكلف والصنعة ، أم هذه الموسيقى التى

تنساب خلال هذه الأبيات ، أم ما تحييه فى نفوسنا من عواطف تتجاوب مع عواطف الشاعر ؟ والحق أن هذه القصيدة تكوّن عالماً شعرياً ، وإذا كان الشاعر لا يبلغ ذروة الشعر إلا عندما يحقق ما يسمى بـ « التجاوب الموسيقى » ، فهذه القصيدة حققت هذا التجاوب ، لأنها رمتنا بلين ورفق فى الجو الذى يتلهف له الشاعر ودوت موسيقاها فى أجزاء نفوسنا ، وأملت علينا عاطفته ، وأسكرتنا بنشوته . وترانا ، بعد أن استطاعت هذه القصيدة تحقيق رسالة الشعر ، عاجزين عن تجزئة عناصرها الفنية التى اشتركت فى إحداث هذه اللذة البديعية فى نفوسنا ، فالعالم الشعرى لا يمكن تجزئته ، ولهذا كان بعض نقادنا حينما يحاولون فى نقدهم هذه التجزئة يبتعدون عن فهم أسرار الجمال الشعرى ويحصرون أنفسهم فى دراسات بلاغية ضيقة .

لا شك فى أن هذه القصيدة خير ما قاله ابن زيدون ، ولكن هل يقترب باقى شعره الذاتى من جمال هذه القصيدة ؟ يمكننا الإجابة عن ذلك بالنفى إذا استثنينا قصيدته التى مطلعها « إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقاً » وقصيدة أخرى أرسلها إلى صديقه أبى حفص بن برد شاكياً سوء حظه وبعض المقطوعات والمطالع الغزلية . أما باقى شعره الذاتى فلا يبلغ هذه الإجادة المحلقة كما لا ينحدر إلى الإسفاف ، ولكنه يبقى صدى لتجاربه القلبية العنيفة ولما انتابه من ألم فى سجنه وتقلب فى أيامه فشكا الدهر ساخطاً حيناً ، مستعطفاً حيناً آخر . على أنه من الخير لنا ألا نبحث عن عبقرية ابن زيدون إلا فى شعره الذاتى الذى عبر فيه عن هواجس قلبه وعما جاش فيه من لواعج الحب والألم ، ففى هذا الشعر خضع لشرطه الأوحد ألا وهو الإصغاء لحديث النفس وهمسات الفؤاد . ثم جاءته الألفاظ والأوزان والصور دون كد . عفو البديهة والخاطر .

أما الوجه الثانى الذى تقنع به ابن زيدون فهو وجه شاعر البلاط ، فقد دفعه إلى هذا الموقف طموحه وظروفه فاتخذ له العدة اللازمة ورأيناه يخضع لصفات شاعر القصر ، بل لعله تدرّب عليها منذ نشأته ، فهو إلى جانب ميله الطبيعى الى هذه الحياة المترفة ، يتمتع بثقافة شعرية ونثرية تجعل منه شاعراً ناثراً يستطيع

أن يشغل هذا المقام ، ولعل خطة الشعراء المداحين الشرقيين كالمتنبي مثلاً والمكانة التي تمتعوا بها كانت تغريه دائماً بالسير على منهاجها وشروطها ، لذلك ذابت شخصيته في مدح الملوك الذين تقرّب منهم طمعاً بالجاه لا طمعاً بالمال فأخذ يعدد فضائلهم على طريقة المداحين التقليديين في المشرق والمغرب ، ورأيناه يطلب عونَ بلاغته ولغته وفنه فيأتيه طائعاً منقاداً ولكن العاطفة كانت تعوزه على الغالب . ومع هذا لا يمكننا أن نقول إنه قد هوى فقد استطاع أن يقوم بمهمة شاعر القصر خير قيام ، إذ لا شأن للعاطفة في هذا المضمار وإنما الشأن للبلاغة والمقدرة الفنية . وقد كان شاعرنا مالكاً زمامهما . ومن الخطأ أن نبحث عن أصالة ابن زيدون في إنتاجه الذي قاله بين أيدي الملوك . فعبقرية شاعرنا لا تبدو واضحة إلا في شعره الذاتي ، ومهما تنوعت المدائح وصور هذا الشعر الرسمي فإننا نراها بعيدة عن الجدة والطرافة راسفةً في قيود التقليد لا تختلف عن نمط الأبيات الآتية في مدح ابن جهور ، وهي أبيات لا نزعم أنها تخلد الشاعر على الرغم من متانة أسلوبه فيها وقوة أسره للكلام :

أَشَارِحَ مَعْنَى المجد وَهْوَ مُعَمَّسٌ وعامِرَ مغْنَى الحمدِ وَهْوَخَرابُ[1]
مُحَيَّاكَ بَدْرٌ والبدورُ أَهِلَّةٌ وَيُمْناكَ بحرٌ والبحورُ ثِغابُ[2]
رأَيتُكَ جَارَاكَ الوَرَى فَغَلَبْتَهُمْ كذلك جَرْى المُذْكِياتِ غِلاَب[3]
فقرَّتْ بها من أوليائِكَ أَعْيُنٌ وَذَلَّتْ لها مِنْ حاسِدِيكَ رِقابُ

* * *

وبعد ، فشعر ابن زيدون يعكس بيئته ويمثل ميلها إلى اللهو والمجون وشرب

---

(١) الديوان ص ٤٥ ، معمس : خفي مبهم .

(٢) ثغاب : جمع ثغب وهو الغدير .

(٣) المذكيات : الخيل التي بلغت تمام السن ونهاية الشباب ، وفي المثل : « جرى المذكيات غلاب » أي تغالب الجرى غلاباً .

الخمر ومجالسة النساء ، ولولا هذه البيئة لما استطاع — وهو الوزير — أن يجاهر بحبه هذه المجاهرة ، بل لعله استمد هذه الشجاعة من صراحة معشوقته التى صورت بيئتها ، هى أيضاً ، خير تصوير كما رأينا .

ولم يشذ شاعرنا عن عادات شعراء الأندلس فى تأثرهم بالطبيعة فقد كانت الطبيعة مسرح حبه ، فإذا خلا إليها ذكّرته رياضُها بنعيم ذلك الحب فى ظلالها ، وكثيراً ما استمد معانيه وأخيلته الغزلية منها كما فى هذه الأبيات :

يومٌ ، كأيام لذاتٍ لنا انْصَرَمَتْ بتْنَا لها حين نامَ الدهرُ سُراقا
نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ جالَ النَّدَى فيه حتى مالَ أعناقا
كأَن أَعينَهُ إذ عاينتْ أَرَقِى بَكَتْ لِما بى فجالَ الدمعُ رقْراقا

فالطبيعة تثير فى نفس شاعرنا معانى الهوى وتحرك لواعجه وتصل بينه وبين الحبيبة :

الهوى فى طلوع تلك النجوم والمُنَى فى هبوبِ ذاك النسيم

وإذا اضطرم الشوق فى نفسه طلب إلى سارى البرق أن يباكر قصرها فيسقى فيه من كان يسقيه الهوى الخالص ، وفى هذه المخاطبة تشخيص للطبيعة وامتزاج بها. إنه ليمتزج بها عندما يخال اعتلال النسيم شكواه فيقول :

ولطالما اعتلَّ النسيم فخلته شكوى رقَّت فاقتضت شكواكِ

وهكذا فالطبيعة والشاعر إلفان لا يفترقان ، والحب عنده أساس لتعلقه بالطبيعة ، فيجعل الشاعر لحن المناجاة سبيلا إلى تشخيصها والارتماء فى رحابها ، وهو بهذا يقترب من بعض شعراء الرومانسية الذين صوّروا حبهم فى أحضان الطبيعة ورشفوا فى خمائلها الحب والحنان .

* * *

أما أسلوبه فهو : على الجملة ، متين رصين فى مدائحه ، رشيق فى غزله .

وقد تحرر أحياناً من قيود القصيدة الجاهلية ، إلا أنه لم يستطع التخلى عن مطالعه الغزلية فى المدائح ، وقد يدخل أحياناً فى الموضوع مباشرة ، هذا فى القصائد التى يستمد وحيها من قلبه والتى تدخل فى نطاق الشعر الذاتى الغنائى .

وعلى الرغم من قلة اختراعه للمعانى ، فقد وفق فى بعض معانيه الغزلية فألبسها ثوباً قشيباً استمده من معين قلبه وخلجات عواطفه ، فبدت كأنها جديدة . ولكنه لم ينج ، مع هذا ، من تكرار بعض المعانى فقاده هذا الأمر إلى الاستطراد .

ولعل أجمل ظاهرة فنية فى شعره هى الموسيقا ، فتناغم الألفاظ وانسجام جرسها جعلا لشعره وقعاً جميلاً وعذوبة فى السمع ، ولعل صدق العاطفة وطبيعة الأندلس الجميلة وحفيف أشجارها وتغريد بلابلها قد اشتركت فى إرهاف حسه الذوقى . وهذه الموسيقا الشعرية ، إلى جانب غيرها من المميزات ، حملت بعض الأندلسيين على تلقيبه ببحترى المغرب ورأينا بعض الأدباء المعاصرين يرون هذا الرأى — على الرغم مما بين الشاعرين من فوارق — ونحن لانشك بموسيقا ابن زيدون ، إلا أننا نرى أن بين الشاعرين فرقاً كبيراً من حيث قوة الشاعرية ، ولئن اجتمعا بموسيقا الشعر فى بعض القصائد إنهما ليفترقان فى نواح أخرى ، ومما لا شك فيه أن ابن زيدون قد فتن بطريقة البحترى ولكنه ، على الرغم من ذلك ، قد أكسبها شخصيته وصدر فى عامة صوره عن نفسه وعبر عن شعوره ، وهو فى نظرنا صورة صحيحة للشاعر الأندلسى بتحليقه وكبوته ، بحريته وعبوديته .

منزلته :

أجمع النقاد على أن ابن زيدون شاعر من الطبقة الأولى من شعراء الأندلس ، فقد كان قوى أسر الكلام ، جيد التعبير الأدبى ، يشتد ويلين فى ديباجته الشعرية حسبما يقتضيه القول ويدعو إليه الغرض .

وقد أعجب الأدباء والكتاب ، منذ القديم ، بروعة نظمه ورونق أساليبه ، ووجدوا لشعره موسيقا فيها الخفة والرشاقة فشبهوه بالبحترى . قال ابن بسام : « يقول

بعض أدبائنا : إن ابن زيدون بحترى زماننا ، وَصَدَقوا لأنه حذا حذْوَ الوليد فى بعض قصائده » .

وقد رأينا أن لشعر ابن زيدون جرساً وانسياباً يذكرنا بجرس شعر البحترى وانسيابه ، وعذوبة موسيقاه .

وشعر ابن زيدون يدلّ ، فوق ذلك ، على أنه طبعَ بالطوابع العربية الأصيلة . وكان نتيجة لثقافة عربية متينة وتمرُّسٍ بشعر الأقدمين وتآليفهم ، ولذا جرى على الشائع المعروف من أساليبهم ، إلا أن شاعرنا استطاع أن يُلبس أقواله شخصيته ويصدر فيها عن عصره ووحيه .

قال الدكتور شوقى ضيف : « وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعانى القديمة أو الموروثة فى حُلة أندلسية جديدة ، فيها الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصالته وشخصيته . . . وابن زيدون من خير النماذج التى تكشف لنا المنزَعَيْن ، فهو لا يخرج فى شعره عن القواعد الموروثة ، وفى الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق فى الحس والخمر واللذة . فاتصاله بالماضى لم يحل بينه وبين تصوير الحاضر الذى عاش فيه »[1].

وإذا أردنا أن نصور هذه الحياة المنفعلة التى عاشها ، كان علينا أن نبحث عنها فى شعر حبه وشكواه ، ففى هذا الشعر استطاع ابن زيدون أن يرسم لنا الهوى فى عمق وعذاب وحرقة ، واستطاع أيضاً أن يدغدغنا فى لحن من المناجاة والذكرى ، تاركاً فى نفوسنا أصداء مرتجفة مبهمة . وقصيدته النونية التى أشرنا إليها خير مثال لهذا الشعر الذى اعتصر فيه فؤاده ، وأودعه أسرار ألحانه الشجية .

وليكن ختام بحثنا هذه الأقوال التى تصوّر نواحى شعره وفنه وتفصح عن منزلته :

قال ابن بسام فى كتابه « الذخيرة » :

« كان أبو الوليد — ابن زيدون — غايةَ منثورٍ ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم .

---

(١) شوقى ضيف ، ابن زيدون ، ص ٤٠ .

أحد من جر الأيام جرًّا، وفاق الأنام طرًّا، وصرّف السلطان نفعاً وضرًّا، وَوَسِعَ البيان نظماً ونثراً . إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المبانى ، شعرىّ الألفاظ والمعانى » .

وقال الأستاذ كامل الكيلانى فى بحث عن حياة ابن زيدون وأدبه نشره فى مقدمة الديوان :

« ميزة ابن زيدون التى تكاد تفرده من شعراء العربية هى الفن . فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً أو غواصاً على المعانى أو وَصّافاً . الفن وحده هو الذى أكسب ابن زيدون زعامة الشعر فى عصره ، وأغرى فحول الشعراء فى زمنه وبعد زمنه بمحاكاته والانضواء تحت رايته » .

وقال :

« إنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل إليك لسهولته أنك تحلق فى أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضى والمجنون ، ثم تقرأ إخوانياته فيخيل إليك لاتساع رسالته وافتنانه فى ضروب القول ، أنك تقرأ ابن الرومى وهو يخاطب أبا القاسم التوزى بهمزيته المشهورة ، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ فى براعة الاستخفاف والتهكم ، أو رسائل المعرى فى سعة الإحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال » .

وقال الدكتور أحمد ضيف فى كتابه « بلاغة العرب فى الأندلس » :

« وكل قصائد ابن زيدون التى أرسلها يستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء الذى لقيه فى سجنه ، وصورة من صور البؤس الذى حرّك شعوره وفتق من لسانه، وأثار فى نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همًّا وغمًّا . ولكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده فى ذلك وما فيها من المعانى برسالته الجدية . وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه فى السجن ، فإنه لم يخرج عن عادته فى ضروب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل إنسان وأكرم من دب على وجه الأرض .

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذّاب خلاّب ،

تظهر عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فإنه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التى كان يمليها عليه شعوره » .

وقال :

« وأقرب عبارته وصولاً إلى القلوب بكاؤه على الماضى ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم . . . ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حنيناً مؤلما ، فإذا قرأت شعره فى ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى وبكيت معه » .

وقال :

« إذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق إليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والأسلوب . ولقد يسمع الإنسان أنينه فى شعره ، ويرى أنّته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها » .

وقال فى نثر ابن زيدون :

« لقد عرف ابن زيدون كيف يأتى فى كتاباته بالتناسق فى المعانى والألفاظ ، بل عرف أن يأتى بهذا التناسق فى التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذى يؤلف بين اللون واللون » .

الفصل الرابع

مختارات من آثار ابن زيدون

١ ـ الغزل

ذكرى وحنين :

أَضْحَى التنائى بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينا ... ونابَ عن طِيبِ لُقْيانا تَجَافِينا[١]

أَلاَّ وقد حانَ صُبحُ البَيْنِ صَبَّحَنا ... حَيْنٌ فقامَ بنا للحَيْنِ نَاعِينا[٢]

مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسينا بانتزاحِهِمُ ... حُزْنًا مع الدهرِ لا يَبْلَى ويُبْلِينا

أَنَّ الزَّمانَ الذى مازال يُضْحِكنا ... أُنْساً بقربِهِمُ قد عادَ يُبْكِينا

غِيظَ العِدا مِنْ تَسَاقِينا الهوى فدعوا ... بأَن نَغَصَّ فقالَ الدهرُ آمينا[٣]

فانحلَّ ما كانَ معقودًا بأَنفسنا ... وانْبَتَّ ما كانَ مَوْصُولاً بأَيدينا

وقدْ نَكُونُ وما يُخْشى تفرُّقُنا ... فاليومَ نحن وما يُرْجَى تَلاقينا

ياليتَ شِعْرِى ولم نُعتِبْ أَعَادِيكُمْ ... هل نالَ حَظًّا من العُتْبَى أَعادينا[٤]

لم نعتقدْ بعدَكُمْ إلاَّ الوفاءَ لكمْ ... رأْياً ولم نتقلدْ غيرَهُ دِينا

ماحقَّنا أَن تُقِرُّوا عَيْنَ ذى حَسَدٍ ... بنا ولا أَن تَسُرُّوا كاشِحاً فِينا[٥]

---

(١) التنائى : البعد وعكسه التدانى . التجافى : المقاطعة .

(٢) ألا : لغة فى هلا وهى كلمة تخصيص مركبة من هل ولا . الحين : الموت .

(٣) غص بالماء : شرق به .

(٤) نعتب : نرضى ، من العتبى وهى الرضا .

(٥) الكاشح : العدو .

* * *

كُنَّا نَرَى اليأْسَ تُسلينا عوارضُهُ وقديئسنا فما لليأْسِ يُغْرينا
بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحُنَا شَوْقًا إليكم ولاجَفَّتْ مَآقينا(١)
نكادُ ، حينَ تُناجيكم ضمائرُنا يقْضى علينا الأَسَى لولا تَأَسِّينا(٢)
حالتْ لِفَقْدِكُمُ أَيامُنا فغدتْ سُودًا و كانَتْ بِكُمْ بِيضاً لياليناً(٣)
إذْ جانِبُ العَيْشِ طَلْقٌ من تَأَلُّفِنا ومَرْبعُ اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصَرْنا غصونَ الوصل دانيةً قُطُوفُها فَجَنَيْنَا منه ماشِينا(٤)
ليُسْقَ عهدُكُمُ عهدُ السُّرُور فما كُنْتُمْ لأَرْواحِنَا إلاَّ رياحينا
لا تحسَبُوا نَأْيَكُمْ عنا يُغَيِّرنا إن طالَ ماغيَّرَ النأْىُ المحبينا
واللهِ ما طلبتْ أَهواؤنا بَدَلاً منكم ولا انصرفتْ عنكم أَمانينا

* * *

ياساريَ البرق غادِ القَصْرَ واسقِ بِهِ مَنْ كان صِرْفَ الهوى والوُدَّ يَسْقينا(٥)
واسأَلْ هنالك هل عَنَّى تَذَكُّرنا إلفاً تَذَكُّرُهُ أَمسى يُعَنِّينا(٦)

---

(١) بنتم : بعدتم . الجوانح : جمع جانحة وهى الضلع ، والمراد بالجوانح ما بداخلها من القلب والحشا . المآقى : العيون .

(٢) الأسى : الحزن . التأسى : التصبر والتعزى .

(٣) حالت : استحالت أى تحولت من حال إلى حال .

(٤) هصرنا : أملنا ، وهنا شبه الوصل بشجرة فالاستعارة مكنية . القطوف : الثمار التى تجنى وتقطف . شينا : مخففة من شئنا .

(٥) غاد : باكر .

(٦) عنى : شغل .

ويا نسيمَ الصَّبا بَلِّغْ تَحِيَّتَنا مَنْ لوْعلى القُرب حَيَّا كان يُحيينا
فهلْ أَرى الدهرَ يَقْضِينا مُساعَفَةً منه وإنْ لم يكنْ غِبًّا تَقاضِينا (١)

* * *

ربيبَ مُلْكٍ كأَنَّ الله أَنشأَهُ مِسْكاً وقدَّرَ إنشاءَ الوَرَى طِينا
أَو صاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً وتَوَّجَهُ مِنْ ناصعِ التِّبْرِ إبداعاً وتَحْسينا (٢)
إذا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رفاهيةً تُومُ العقود وأَدْمَتْه البُرَى لِينا (٣)
كانتْ له الشمسُ ظِئْراً فى أَكِلَّتِهِ بلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إلا أَحَايِينا (٤)
كأَنما أُثْبِتَتْ فى صَحْنِ وَجْنتِهِ زُهْرُ الكواكبِ تَعْوِيذاً وتَزْيِينا (٥)
ماضرَّ أَن لم نكن أَكفاءَه شَرَفاً وفى المَوَدَّةِ كافٍ مِنْ تكافينا

* * *

يا روضةً طالما أَجْنَتْ لواحِظَنَا وَرْداً جَلَاهُ الصِّباغَضًّا ونِسْرينا (٦)
ويا حياةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِها مُنًى ضروباً ولذاتٍ أَفانينا (٧)

---

(١) غباً : الغب فى الزيارة الإقلال .
(٢) الورق : الفضة .
(٣) تأود : تثنى . آدته : أثقله . توم : لآلئ ، مفردها تومة وهى حبة من فضة ، وجمعها توم بفتح الواو وإسكانها . البرى : الخلاليل ، ومفردها البرة وهى حلقة الخلخال .
(٤) الظئر : المرضعة . أكلة : جمع كلة وهى ستر رقيق يوضع فوق الفراش .
(٥) التعويذ : الرقية .
(٦) النسرين : نوع من الورد أبيض عطرى الرائحه .
(٧) تمليتنا : تمتعنا وتعمنا .

ويا نعيماً خَطَرْنا من غضارته ... فى وَشْى نُعْمى سَحَبْنا ذيلَه حينا[١]
لسنا نُسَمِّيكِ إجلالاً وتكْرمةً ... وقَدْرك المعْتَلى عن ذاكَ يُغْنينا
إذا انفردْتِ وماشُورِكْتِ فى صفةٍ ... فَحْسبنا الوصفُ إيضاحاً وتبْيينا

* * *

ياجنَّةَ الخُلْدِ أُبْدِلْنا بِسِدْرَتِها ... والكَوْثر العذبِ زَقُّوماً وَغِسْلينا[٢]
كأَننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا ... والسعدُ قد غَضَّ مِنْ أجفانِ واشينا
سِرَّان فى خاطر الظلماءِ يَكْتُمنا ... حتى يكادَ لسانُ الصبح يُفشينا
لاغروفى أَنْ ذَكَرْنا الحزنَ حينَ نَهت ... عنهُ النُّهَى وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينا[٣]
إنَّا قَرَأْنا الأَسَى يومَ النَّوى سُوَرًا ... مَكْتُوبةً وأَخَذْنَا الصَّبرَ تَلْقِينا
أَمَّا هواكِ فلم نَعْدِلْ بمنهله ... شِرْباً وإن كان يُروينا فَيُظْمِينا[٤]
لم نَجْفُ أُفْقَ جمالٍ أَنتِ كوكبُهُ ... سالينَ عنه ولم نَهْجُرْه قَالِينا
ولا اختياراً تَجَنَّبناه عن كَثَبٍ ... لكنْ عَدَتْنا على كُرْهٍ عَوادينا[٥]
نَأْسَى عليكِ إذا حُثَّتْ مشعشعةً ... فينا الشمُولُ وَغَنَّانا مُغَنِّينا[٦]
لاأَكؤُسُ الراحِ تُبدِى من شمائلنا ... سِيما ارتياحٍ ولا الأَوتارُ تُلهينا

---

(١) الغضارة : النعمة وخفض العيش . الوشى : ثوب من الحرير منقوش .
(٢) السدرة : شجرة النبق وهى كبيرة عظيمة الظل ، الإشارة هنا إلى « سدرة المنتهى » . الكوثر : نهر فى الجنة . الزقوم والغسلين : من أطعمة أهل جهنم .
(٣) النهى : جمع نهية وهى العقل .
(٤) قالين : كارهين .
(٥) كثب : قرب . عدتنا : صرفتنا . العوادى : صروف الدهر .
(٦) الشمول : الخمر ، ومشعشعة : ممزوجة بالماء .

دُومى على العهدِ مادُمْنا محافِظَةً فالحرُّ مَنْ دَانَ إنصافاً كمادِينا[١]
فمااستَعَضْنَاخليلاًمنكِ يَحْبِسُنا ولا اسْتَفَدْنا حَبيباً عنكِ يَثْنينا
ولوْ صَبَا نحونا من عُلْوِ مَطْلَعِهِ بدرُالدجى لم يكنْ حاشاكِ يُصبينا[٢]
أَوْلِى وفاءً وإنْ لم تَبْذُلى صلةً فالطيفُ يُقْنِعنا والذِّكرُ يَكْفينا[٣]
وفى الجوابِ مَتَاعٌ إن شَفَعْتِ به بِيض الأَيادى التى مازلتِ تُولينا
عليكِ منى سلامُ اللهِ مابَقِيَتْ صَبابةٌ منكِ نُخفيها فتُخفينا[٤]

دراسة القصيدة

المناسبة :

جاء فى الديوان أن ابن زيدون « كتب هذه القصيدة الفذة يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرّح والألم القاسى ، وقد بعث بها إلى حبيبته ولادة بنت المستكفى أديبة الأندلس الفذة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة » وقد نظم الشاعر هذه القصيدة فى الفترة التى تلت فراره من السجن ، أى بعد سنة ٤٣٣ هـ ، عندما رحل إلى إشبيلية للمرة الأولى . وتتراءى لنا خلال أبياتها عبقرية الشاعر الفذة ونضجه الشعرى بعد أن مرّ بتجربة السجن وآلامه وعذاب البعاد وأتراحه ، فجاءت عصارة نفس متألمة ، مقيمة على الحب ، لا تسلو ولا تنسى .

ولا جدَلَ فى أن هذه القصيدة قد جمعت بين أفانين شتى من الإجادة

---

(١) دان : جزى .
(٢) صبا : مال . يصبينا : يستهوينا .
(٣) أولى : أنعمى .
(٤) نخفيها فتخفينا : نسترها فتظهرنا ، أخفيت الشيء وخفيته بمعنى سترته وبمعنى أظهرته وهى من الأضداد .

وعبّرت عن عاطفة الشاعر الصادقة ونالت من الشهرة ما جعل كثيرين من الشعراء يعارضونها . فعارضها صفى الدين الحلى والصفدى وأخيراً شوقى فى قصيدته التى يحنّ فيها إلى وطنه ومطلعها :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

وقد قال عنها الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان : « إنها قصيدة ضربتْ فى الإبداع بسهم، وطلعت فى كل خاطرٍ ووهم ، ونزعت منزعاً قصّر عنه حبيب وابن الجهم » .

أقسام القصيدة ومعانيها :

تكاد تكون هذه القصيدة وحدة شعرية لا يخرج فيها الشاعر عن دائرة قلبه المحطم ، ولكن يمكننا أن نتبين بعض الفواصل فى هذا الكيان الشعرى المتماسك .

١ — من البيت (١ — ١٩) وصفٌ لحال الحاضر ووصف للماضى ، ويتخلل هذا القسم أبيات تؤكد الوفاء والحب المقيم والتجلد على الواقع الأليم (الأبيات ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩) .

٢ — المناجاة وإشراك الطبيعة فى إحساسه (٢٠ — ٢٣) .

٣ — وصف المحبوبة (٢٤ — ٣٤) .

٤ — عودة إلى المناجاة مع مقارنة الحاضر المقيم بالماضى الآفل وتأكيد للوفاء ينتهى إلى الاستعطاف والاستسلام لهدوء ذليل (٣٥ — ٥٠) .

١ — يفتتح الشاعر قصيدته دون تمهيد ، ويقذف بنا فى جو آلامه بوثبة عاطفية تصور لنا حاله وما آل إليه . لقد أصبح قربه بعداً ، وأصبح الهجر والموت سواءً فى نظره . ويود أن يُعلّم ذاك الذى ألبسه حزناً دائماً ببعده عن حبيبته، يود أن يعلمه أن ضحكه قد حال إلى بكاء . وأن الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه وحقق لهم ما أرادوا من إيقاع بين حبيبين ، فلم يعودا يرجوان التلاقى بعد أن كانا لا يخشيان الفراق .

ثم ينتقل الشاعر إلى عرض ما يكنه من وفاء لولاّدة ويبثها آلامه ولوعته ، ويبين فى بيت جميل أن الحزن — لولا تأسيه — يكاد يقضى عليه . ويعود إلى وصف أيام هنائه وأنسه ويقارنها بحالته الراهنة مستعيناً بالصناعات العفوية التى يمليها الفن قدر ما يمليها القلب ، فأيامه الحاضرة سود بينما كانت لياليه معها بيضاء ينال من روضته ما يشتهى ويجنى من ثمرها ما يريد ، ولكن هذه الحسرة ما كانت لتملى عليه السخط والثورة ، بل يؤكد ، فى ذل ، أن النأى لا يغيره ولن ينسى ذلك العهد الرطيب ، مهما خبت جذوة الحب فى قلوب المحبين النائين فقد كنتم الرياحين لأرواحنا وما زلتم تلك الرياحين .

٢ — هذه الحسرة النائحة تقوده إلى المناجاة فيطلب من الطبيعة أن تشاركه فى إحساسه ، ويخاطب سارى البرق أن يباكر قصرها فيجود أهله بغيثه اعترافاً منه له على ما أعطاه من حب ومودة ، ويحمل النسيم تحيتَه إلى تلك التى يُحيِيه سلامُها ، ويذكر خلال ذلك صوراً جميلة لماض راحل وعهد حائل .

٣ — وذكر القصر يقوده إلى مَنْ يسكنه ، إلى هذا المحبوب الذى ليس كسائر البشر ، فهو صنيع الملوك وطينة من المسك ، وجسم من اللجين يكلله تاج من التبر هو ذاك الشعر الذهبى الذى كان يتوج رأس محبوبته . وأنت تلمح خلال هذا الوصف عبير القصور الملكية ، ورفاهية الحسان ، ونعيم السلطان ، فجمال المحبوب هنا ليس من الجمال الذى تضمه الشوارع ، وإنما جمال أرستقراطى تلمح خلاله ليونة النعيم وغضارته وتأود القد المرهف ورخاصته ، حتى ليدميه مس العقود والمجوهرات .

٤ — وفى غمرة هذا الوصف يتلهف على ماضيه ويعود إلى المناجاة بلحن حزين فيندب تلك الجنة التى أبعد عنها ويحنّ إلى ذلك الكوثر العذب الذى أبدل به ماءً آجناً وغِسْلينا . وكم هى جميلة تلك القفزة فى الماضى يقفزها الشاعر ليحدثنا عن تلك العزلة التى كان يتمتع بها العاشقان وقد حالفهما السعد فكانا سرَّيْن مطويَّين فى خاطر الظلماء لا يفضحهما إلا لسان الصبح . نعم قد تكون الصورة قديمة فى بعض تفاصيلها كاستعارته اللسان للصبح ، إلا أننى أراها جديدة كل

الجدة فى تركيبها وصدقها فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن شخصين ماديين بكلمة معنوية جسدت الكتمان خير تجسيد ، ورسمت خلوة من خلوات الحب ، وآلف بين الصنعة والعاطفة خير تآلف .

وتأتى بعد ذلك أبيات فى المناجاة (البيت ٣٩ – حتى النهاية) ليس فيها ما يستدعى الوقوف ، ويبدو فيها أن الشاعر يلهث . على أن الخاتمة منطقية فيها نوع من الهدوء وكثير من الاستسلام ، وفيها تأكيد دائم على الوفاء يطلبه ممن أحب كما يطلبه من نفسه ، بل لعله لا يستطيع التخلى عن هذا الوفاء فى الحب لأنه سبب من أسباب بقائه . فليقنع بالقليل إذن ، وليودّعها وفى نفسه ذلةٌ وانكسار وفى الجو الذى خلقه ارتجاف وحسرةٌ ورنين .

العاطفة والأسلوب :

إن الميزة التى تبدو فى أسلوب ابن زيدون هى « الفن » فهو شاعر فنى قبل أن يكون حكيماً أو فيلسوفاً أو غواصاً على المعانى أو وصافاً . وهذه الخصائص الفنية تتجلى على أصدق صورة فى هذه القصيدة ، فألفاظها حلوة عذبة تتلقفها الأذن فى لينٍ ويسْر وتحدث فى النفس فى تأليفها وتنسيقها تناغماً وجرساً يعكس عاطفة الشاعر ويعبر عنها خير تعبير ، ونرى أن أكثر الكلمات تتساند ويستدعى بعضها بعضاً ، ولئن كان الشاعر يلجأ إلى الطباق فى العاطفة فإنه يلجأ إليه فى اللفظ أيضاً ، لذلك رأينا هذه المزاوجة فى المعانى والألفاظ ، وعلى هذه المزاوجة والمقابلة يقوم الكثير من جمال هذه القصيدة . ويكثر الشاعر من الألفاظ والأوزان التى تدل على المشاركة ليبين أن العاطفة هى فى تجاوب مستمر ، فلا انفصام وإنما رجفة متصلة ، بين ماض حبيب وحاضر مؤلم . ومما يزيد فى هذه الرجفة طولا هو هذه القافية الممدودة . وهذه (النونات الطويلة) التى تضيف إلى جرس القطعة أنيناً موسيقيًّا حزيناً .

وأكثر معانى القصيدة ينظر إلى معانى المشرقيين ، ويدل على تعلُّق الأندلسيين بالمشرق ، على أن معانى الغزل لم تتحرر من التقليد فى الشرق والغرب ، وما فىّ

الشاعر يصف لنا ذل الغرام وقساوة المحبوبة ، غير أن واقعية التجربة الغرامية التى عاشها ابن زيدون سترت عنه الكثير من العيوب ، وجعلت القصيدة تستقى وحيها من نبضات قلب الشاعر ، وقد استطاع أن يؤلف بين هذه النبضات وبين الفن الذى تمليه عليه ثقافته وبيئته وعبوديته أحياناً . ومن هذه المعانى التقليدية مخاطبته للنسيم والدعاء بالسقيا ، إلا أن الشاعر استطاع أن يمنح عبارته فيها رنة الإخلاص ، فأحيا الطبيعة وجعلها إنساناً يشارك الشاعر آلامه ويشفق على المحبين المتباعدين .

ونجد أن أكثر أبيات القصيدة مشتمل على فنون البيان والبديع ، ولكنها ما كانت لتأتى متكلفة ، بل أحياناً ثبّتت المعنى وأعطته نوعاً من التجسيم كقوله :

أَنَّ الزمانَ الذى مازال يُضحكنا أُنساً بقربكم قد عاد يُبكينا

ففيه استعارة وطباق . وكقوله أيضاً :

وإذ هصرناغصون الوصل دانيةً قطوفُها فجنينا منه ماشينا

ففيه استعارة جميلة :

وفى استعماله « الوصل ثالثنا » كناية جميلة عن عزلتهما وخلوتهما عندما يقول :

كأَننا لم نَبتْ والوصلُ ثالثنا والسعد قد غضَّ من أَجفان واشينا

سِرَّانِ فى خاطر الظلماءِ يكتُمُنا حتى يكادَ لسانُ الصبح يُفْشينا

وإننا نجد نفحة قرآنية فى هذا البيت :

ياجنة الخلدِ أُبدلنا بسِدْرتها والكوثر العذب زَقُّوماً وغِسْلِينا

وهذا النداء فى « يا سارى البرق » وفى « يا روضة » و « يا حياة » و « يا نعيماً » يزيد فى لحن المناجاة .

على أن هناك أبياتاً ثقيلة على السمع ضعيفة الجرس كقوله :

مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسِينا بانتزاحِهِمُ حُزناً مع الدهرِ لايَبْلى ويُبلينا
أَنَّ الزمانَ الذى ما زال يُضحكنا أُنساً بقربهم قد عاد يُبكينا

فاستعماله « الملبسين حزناً » ثقيل على الأذن ، واستعماله لكلمة « حاشاك » فى البيت الآتى حَشْوٌ بغيض :

ولو صَبَا نحونا منْ عُلْوِ مطلعه بدرُالدُّجى لميكن حاشاكِيصبينا

أضف إلى ذلك ابتذال المعنى فى هذا البيت السابق . على أن القصيدة لا تضيرها هذه الهنات وهى ، بعد هذا كله ، فياضة بالألم ، حلوة الوقع فى السمع ، موسيقية الجرس ، مفعمة بالحياة ، تترك فى النفس صدى حزيناً .

ذكرى ولادة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة بعد خروجه من السجن وقبل العفو عنه يتشوق إلى حبيبته ويناجيها ويتلهف على لقائها :

إنى ذَكَرْتُكِ بالزَّهْراءِ مُشْتاقا والأُفْقُ طَلْقٌ وَمَرْأَى الأَرضِ قدْرَاقا(١)
وللنسيم اعتلالٌ فى أَصائِلِهِ كأَنَّه رقَّ لى فاعتلَّ إشفاقا
والرَّوْضُ عن مائِهِ الفِضِّىِّ مُبْتَسِمٌ كما شَقَقت عن اللَّبَّاتِ أَطْواقا(٢)
يومٌ كأَيام لذاتٍ لنا انْصَرَمَتْ بتْنا لها حينَ نامَ الدهرُ سُرّاقا
نلهُو بما يَسْتَمِيلُ العين من زَهرٍ جَالَ النَّدَى فيه حتى مالَ أَعناقا
كأَنَّ أَعينَهُ إذ عاينتْ أَرَقِى بَكَتْ لِما بى فجالَ الدمْعُ رَقْراقا

(١) راق : بمعنى أعجب .

(٢) اللبات : جمع لبة وهى موضع القلادة من الصدر . والأطواق : جمع طوق وهو ما يحيط بالعنق من الثوب ، والطوق أيضاً من الحلى .

وَرْدٌ تَأَلَّقَ فى ضَاحِى مَنَابِتِه فازْدَاد منه الضُّحَى فى العين إشراقا[١]
سَرَى يُنَافِحُهُ نيلوفرٌ عَبِقٌ وَسْنَانُ نَبَّه منه الصبحُ أَحْداقا[٢]
كلٌّ يُهيجُ لنا ذِكْرَى تُشَوِّقُنا إليكِ، لم يَعْدُ عنها الصدرُ أَنْ ضاقا
لاسَكَّنَ اللهُ قلباً عَنَّ ذِكْرُكُمُ فلم يَطِرْ بِجَنَاح الشَّوق خَفَّاقا
لوشاءَ حَمْلى نسيمُ الصبح حين سرى وافاكم بفتى أَضناهُ ما لاقَى
لوكان وَفَّى المُنَى فى جَمْعِنا بكُمُ لكانَ مِنْ أَكرم الأَيام أَخْلاقا
ياعِلْقِيَ الأَخْطَرَ الأَسْنى الحبيب إلى نفسى إذا ماالْتَقَتنى الأَحْباب أَعْلاقا[٣]
كان التجارى بمحض الودمُذزمن ميدانَ أُنْسٍ جَرَينا فيه أَطْلاقا[٤]
فالآن أَحْمَدَ ما كُنَّا لعهدِكُمُ سَلَوْتُمُ وَبَقِينَا نحنُ عُشَّاقا

التعليق :

تصوّر هذه القصيدة فتنة الطبيعة وما يثيره جمالها من صور الحبيب وجماله فى جوّ من الذكرى . ويقول الدكتور سيد نوفل عنها : إنها قصيدة « تموج فيها عاطفتان : عاطفة الماضى الجميل تكسبه الطبيعة الحلوة مزيداً من الحسن ، وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والكآبة . والشاعر إذا تحدث عن الماضى ابتسمت الطبيعة فى طلاقة الأفق وصفاء وجه الأرض وابتسام الروض وطرب الزهر وتألق الورد وإشراق الضحى ، وإذا تحدّث عن الحاضر تمثل له فى اعتلال

---

(١) ضاحى المنابت : المنابت البارزة للشمس ، المرتفعة .
(٢) نيلوفر : نبات ينبت فى المياه الراكدة ويورق على سطحها وله زهر يتفتح فى النهار وينام فى الليل .
(٣) العلق : الشىء النفيس الذى يعلق . الأخطر : ذو الشأن والقيمة .
(٤) التجارى : المسابق . أطلاق : جمع طلق وهو الشوط فى السباق .

النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمعه الرقراق ، ونعاس النيلوفر ؛ وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التى يذكيها جو الذكرى باعثاً فى النفوس لحناً من الأسى والإشفاق والصدى العميق » . (شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢٦٧) .

وقال مخاطباً ولاّدة :

يانازحاً وضميرُ القلب مثواهُ أَنستكَ دنياك عبدًا أَنت دنياهُ
أَلهتكَ عنه فُكاهاتٌ تلذُّ بها فليس يَجْرِى ببال منك ذِكراهُ
علَّ الليالىَ تُبقينى إلى أَملٍ الدهرُ يعلمُ والأَيامُ معناهُ

مدام العيون :

قال ابن زيدون الأبيات الآتية يحن بها إلى ولادة ، وهى فى مطلع قصيدة مدح بها أبا الوليد بن جهور عندما اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه أبى الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ للهجرة :

ما لِلْمُدام تُدِيرُها عيناكِ فيميلُ فى سُكْرِ الصِّبا عِطفاكِ
هلاَّ مَزَجْتِ لعاشِقيكِ سُلافَها بِبَرُودظَلْمِكِأَو بَعْذب لَمَاكِ[١]
بل ماعليك وقدمَحَضْتُ لَكِ الهَوَى فى أَن أَفوزَ بحُظوة المِسْواكِ[٢]
ناهيكِ ظُلْمًا أَن أَضرَّ بى الصدى بَرْحاً ونال البرءَ عُودُ أَراكِ[٣]
واهاً لِعَطْفِكِ والزمانُ كأَنما صُبِغَتْ غضارتُهُ ببُرْدِ صِباكِ[٤]

---

(١) الظلم : الريق وماء الأسنان . وبرود : بارد . اللمى : سمرة فى الشفة .
(٢) محضت : أخلصت . المسواك : جمعه مساويك وهو عود تطهر وتنظف به الأسنان .
(٣) الصدى : العطش . البرح : الشدة والمشقة .
(٤) الغضارة : البهجة .

والليلُ مهما طالَ قَصَّر طولَهُ هاتى، وقد غَفَلَ الرقيبُ، وهاك
ولطالما اعتلَّ النسيم فخلتُه شكوايَ رَقَّت فاقتضتْ شكواك
إن تـأْلَفى سِنَةَ النؤوم خَلِيَّةً فلطالما نافَرْتِ فىَّ كَرَاك[1]
أَو تَحْتبى بالهجر فى نادى القِلَى فَلَكَمْ حَلَلْتِ إلى الوصال حُباك[2]
أَمَّا مُنَى نفسى فأَنتِ جميعها يالِيتنى أَصبحتُ بعضَ مُناك
يدنو بِوصلِكِ حينَ شَطَّ مزارُهُ وَهْمٌ أَكادُ به أُقَبِّلُ فاك[3]
ولئن تجنَّبتُ الرشادَ بِغَدْرَةٍ لم يَهوِ بى فى الغَىِّ غيرُ هَواك

لهفة محب :

نظم الشاعر هذه المقطوعة بعد أن هجرته حبيبته ، وفيها يتلهف لو تعود إلى الوصل ، قال :

إليكِ من الأَنام غَدَا ارتياحى وأَنتِ على الزمان مَدَى اقتراحى
وما اعترضَتْ همومُ النفس إلا ومن ذِكْراكِ رَيْحانى وراحى
فديتُكِ إنَّ صَبْرى عنكِ صَبْرى ،لدى عَطَشى ،على الماءِ القَرَاح[4]
ولى أَمَلٌ لَوِ الواشونَ كفُّوا لأَطْلَعَ غرسُهُ ثمرَ النَّجَاح
وأَعْجَبُ كيفَ يَغْلِبُنى عدوٌّ رِضَاكَ عليهِ من أَمْضَى سلاح[5]

---

(١) نافر هنا بمعنى عادى . الكرى : النوم
(٢) احتبى : اشتمل بالثوب ، من الحبوة وتجمع على حبى . القلى البغض الشديد .
(٣) شط : بعد .
(٤) القراح : الصافى .
(٥) يريد بالعدو منافسه ابن عبدوس .

ولمَّا أَن جَلَتْكِ لى اختلاساً أَكفُّ الدهر للحَيْنِ المُتاح[١]
رأَيت الشمسَ تطلُعُ من نِقاب وغُصنَ البانِ يَرْفُلُ فى وِشاح[٢]
فلو أَسْطِيعُ طِرْتُ إليكِ شَوْقاً وكَيفَ يطيرُ مقصوصُ الجناح
على حالَىْ وصالٍ واجتنابٍ وفى يومَىْ دُنُوٍّ وانْتِزَاح
وحسبى أَنْ تُطالِعَكِ الأَمانى بأُفْقِكِ فى مساءٍ أَو صباح
وأَنْ تُهدِى السلامَ إلىَّ غِبًّا ولَوْفى بعضِ أَنفاسِ الرِّياح[٣]
فؤادى من أَسًى بكِ، غيرُ خالٍ وقلبى عن هوى لكِ غيرُ صاح

وداع :

فى هذه المقطوعة لحن حزين يعبر الشاعر فيه عن يأسه بعد أن هجرته صاحبته وأصبح فى شقاوة اليأس وفراغ الدنيا ، يقول :

لئن قَصَّرَ اليأْسُ منكِ الأَملْ وَحَالَ تَجَنِّيكِ دونَ الحِيَلْ
وناجاكِ ، بالإفكِ فىَّ الحسودُ فأَعطيْتِهِ ـ جَهْرَة ـ ماسَأَلْ[٤]
وراقكِ سِحْرُ العِدى المُفْتَرَى وغرَّكِ زُورهُمُ المُفْتَعَلْ
فإِن ذِمامَ الهوى لن أَزَالَ أُبَقّيهِ حِفْظاً كَمَا لم أَزَلْ
فديتُكِ إِنْ تَعْجَلى بالجَفَا فقد يَهَبُ الرَّيثَ بعضُ العَجَلْ[٥]

---

(١) الحين : الهلاك .
(٢) الوشاح : حزام يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .
(٣) غباً : حيناً بعد حين .
(٤) الإفك : الكذب .
(٥) فى هذا البيت تضمين للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثاً » والريث : البطء .

علامَ اطَّبَتْكِ دواعى القِلى ؟ وفيمَ ثَنَتْكِ نواهى العَذَل ؟[١]
أَلمْ أَلزمِ الصبرَ كيما أَخِفَّ أَلمْ أُكثِرِ الهجرَ كَىْ لا أُمَلْ
أَلم أَرْضَ منكِ بغير الرِّضا وأُبدِى السرورَ بما لم أَنَل
أَلم أَغتفرْ موبقاتِ الذنو بِ عَمْدًا أَتيتِ بها أَم زَلَل ؟[٢]
وما ساءَ ظَنِّىَ فى أَنْ يسىءَ بِىَ الفعلَ حُسْنُكِ حتى فَعَلْ
على حينَ أَصبحتِ حَسْبَ الضمير ولم تَبغ منكِ الأَمانى بَدَلْ
سعيتِ لتكديرِ عهدٍ صَفَا وحاولتِ نَقْضَ ودادٍ كَمَلْ
فما عُوفِيَتْ مِقَتِى من أَذًى ولا أُعْفيَت ثِقتى من خَجَلْ[٣]
ومهما هَزَزْتُ إليك العِتا بَ ظاهَرْتِ بين ضُرُوبِ العِلَلْ[٤]
كأَنكِ ناظرتِ أَهلَ الكلام وأُوتيتِ فهماً بعِلْمِ الجَدَل[٥]
ولو شئتِ راجعتِ حُرَّ الفَعَالِ وعُدْت لتلكَ السجايا الأُوَل
فلم يك حَظِّىَ منْك الأَخَسَّ ولا عُدَّ سَهْمِىَ فيكِ الأَقَل
عليكِ السلامُ سلامُ الوَادَعِ وَدَاعِ هَوًى مات قَبْلَ الأَجَل
وما باختيارٍ تَسَلَّيْتُ عنكِ ولكننى مُكْرَهٌ لا بَطَل[٦]

---

(١) اطبتك : استمالتك .
(٢) موبقات : مهلكات .
(٣) المقه : الحب .
(٤) ظاهر : طابق .
(٥) أهل الكلام : علماء الكلام والتوحيد .
(٦) تضمين للمثل المشهور : « مكره أخاك لابطل » يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه ولا فى حدود استطاعته .

ولم يَدْرِ قلبيَ كيفَ النزوعُ إلى أنْ رأى سيرةً فامْتثل
وليتَ الذى قادَ عفوًا إليكِ أبِيَّ الهوى فى عِنَانِ الغَزَل
يُحِيلُ عُذُوبةَ ذاك اللَّمَى ويَشْفِى منَ السُّقْمِ تِلكَ المُقَل

وقال :

أنَّى أُضيِّعُ عهدَكْ ؟ أم كيفَ أَخْلِفُ وَعْدَكْ
وقد رَأَتْكَ الأَمانى رِضًى ، فلم تَتَعَدَّكْ
يا ليتَ مالَكَ عِندى من الهوى لىَ عِنْدكْ !
فطال ليلُكَ بَعْدِى كطول ليلِىَ بعدَكْ
سَلْنى حياتى أَهَبْهَا فلستُ أَمْلِكُ رَدَّكْ
الدهرُ عَبْدِىَ ، لمَّا أصبحتُ فى الحُبِّ عَبْدَكْ

وقال :

أَرْخَصْتِنى مِنْ بَعْدِ ما أَغْلَيْتِنى وحَطَطْتِنى ولطالما أَعْلَيْتِنى
بادَرْتِنى بالعَزْل عن خِطَطِ الرِّضا ولقدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إذْ وَلَّيْتِنى
هَلاَّ ، وقد أَعْلَقْتِنى شَرَكَ الهَوَى عَلَّلْتِنى بالوَصْل أو سَلَّيْتِنى
الصبرُ شَهْدٌ عندما جَرَّعْتِنى والنارُ بَرْدٌ عندما أَصْلَيْتِنى
كنتِ المنى فأَذَقْتِنى غُصَصَ الأذى يا لَيْتَنى مافُهْتُ فِيكِ : بِلَيْتَنى

لا أهل ولا وطن[١] :

وقال ابن زيدون هذه الأبيات وهى من أشجى مقطوعاته فى مناجاة حبيبته والشوق إلى مواطنيه وقد قالها نائياً عن أهله ، بعيداً عن قرطبة :

هلْ تذْكُرُونَ غريبًا عَادَهُ شَجَنُ ... مِنْ ذِكْرِكُمْ وَجَفَا أَجْفَانَهُ الوَسَنُ[٢]

يُخْفِى لَوَاعِجَهُ والشَّوْقُ يَفْضَحُهُ ... فَقَدْ تَسَاوَى لَدَيْهِ السِّرُّ والعَلَنُ

يا وَيْلَتَاهُ ! أَيَبْقَى فى جَوَانِحِهِ ... فُؤَادُهُ ، وَهْوَ بالأَطْلالِ مُرْتَهَنُ ؟

وأَرَّقَ العَيْنَ ، والظَّلْماءُ عَاكِفَةٌ ، ... وَرْقَاءُ ، قَدْشَفَّها ، إِذْشَفَّنِى حَزَنُ[٣]

فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُوفَوْقَ أَيْكَتِها ... وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِيَاحًا بَيْنَنَا الغُصُنُ[٤]

* * *

يَاهلْ أُجَالِسُ أَقْواماً أُحِبُّهُمُ ؟ ... كُنَّاوكَانوا على عهْدٍ فَقَدْظَعَنُوا[٥]

أَوْ تَحْفَظُونَ عُهُودًا لا أُضَيِّعُهَا ... إِنَّ الكِرامَ بِحِفْظِ العَهْدِ تُمْتَحَنُ[٦]

ومنها :

إِنْ كانَ عَادَكُمُ عِيدٌ فَرُبَّ فَتًى ... بالشَّوْقِ قَدْعَادَهُ مِنْ ذِكْرِكُمْ حَزَنُ

وأَفْرَدَتْهُ اللَّيالى مِنْ أَحِبَّتِهِ ... فَبَاتَ يُنْشِدُها ، مما جَنَى الزَّمَنُ

« بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لا أَهْلٌ ،ولاوَطَنٌ ... ولانديم ،ولاكأس ،ولاسَكَنُ ! »[٧]

---

(١) لم ترد هذه القصيدة بالديوان ، وقد أثبتناها عن المعجب .

(٢) الشجن : الحزن . الوسن : النوم .

(٣) ورقاء : حمامة . شفها الحزن : أضعفها وأنحلها .

(٤) الأيكة : الشجرة الضخمة أو الأجمة بجوار الماء . يهفو : يتحرك ويتمايل .

(٥) ظعنوا : رحلوا .

(٦) تمتحن : تختبر .

(٧) اقتبس الشاعر البيت من مطلع قصيدة للمتنبي . السكن : ما يسكن إليه الإنسان من أهل ومال وغير ذلك ، ويطلق فى الغالب على الزوجة أو الحبيبة .

٢ ـ الشكوى والاستعطاف

لوعة فى السجن :

نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو فى السجن ، وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبى حفص بن بُرد :

ما عَلَى ظَنِّىَ بَاسُ يَجْرَحُ الدهرُ ويأسُو[١]
ربما أَشْرَفَ بالمَرْ ءِ على الآمالِ يأسُ
ولقدْ يُنْجيكَ إغفا لٌ ويُرْدِيكَ احتراسُ
والمحاذيرُ سِهامٌ والمقَادير قِياسُ[٢]
ولَكَمْ أَجْدَى قُعُودٌ ولَكَمْ أَكْدَى النِّماسُ[٣]
وكذا الدَّهْرُ ، إذا ما عَزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ
وبنو الأَيام أَخْيَا فٌ : سَراةٌ وخِساس[٤]
نَلْبَسُ الدنيا ، ولكنْ متعةٌ ذاك اللِّبَاسُ
يا أَبا حَفْصٍ وماسا واكَ فى فَهْمٍ إياسُ[٥]

---

(١) ياسو : يأسو يداوى .
(٢) قياس : هنا جمع قوس .
(٣) أجدى : أغنى وأفاد ، أكدى : أخفق .
(٤) أخياف : مختلفون ، قال بعضهم : « الناس أخياف وشتى فى الشيم » .
(٥) هو إياس بن معاوية بن قضاة العراق فى عصر بنى أمية وكان يضرب به المثل فى الذكاء والفهم ، وعناه أبو تمام فى قصيدته التى يمدح بها أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

مِن سَنَا رأْيكَ لى فى غَسَقِ الخَطْبِ اقتباسُ[١]
ووَدَادى لكَ نصٌّ لم يخالِفْهُ القِيَاسُ
أَنا حيرانُ وللأَمْـ ـر وضوحٌ والتباسُ
ما تَرَى فى مَعْشرٍ حَا لُوا عن العهدِ وخَاسوا[٢]
ورأَونى سَامِرِيًّا يُتَّقَى منه المِساسُ[٣]
أَذْؤُبٌ هامَتْ بِلَحْمى فانتهاشٌ وانْتِهاسُ[٤]
كلُّهُمْ يسأَلُ عَنْ حا لى وللذئبِ اعْتِسَاسُ[٥]
إن قَسَا الدهرُ فَلِلْمَا ءِ مِنَ الصَّخرِ انْبِجَاسُ[٦]
ولئن أَمسيتُ محبو ساً فللغيثِ احتباسُ
يَلبُدُ الوَرْدُ السَّبَنْتَى وله بَعْدُ افتراسُ[٧]
فتأَمَّلْ كيفَ يَغْشَى مقلةَ المجدِ النُّعاسُ
ويُفَتُّ المِسْكُ فى التُّرْ بِ فَيُوطَا ويُداسُ[٨]
لا يكن عَهْدُكَ وَرْدًا إنَّ عهدى لكَ آسُ

---

(١) سنا : ضوء . غسق : ظلمة .
(٢) خاسوا : خانوا .
(٣) السامرى : كان من قوم موسى ، فعبد العجل وتحاماه الناس ، وقصته مشهورة فى القرآن الكريم .
(٤) الانتهاس : العض .
(٥) الاعتساس : طلب الصيد بالليل .
(٦) انبجس : نبع .
(٧) يلبد : يلصق بالأرض . الورد : الأسد . السبنتى : الجرىء .
(٨) لا يكن عهدك سريع الذبول كالورد فإن عهدى كالآس لا يذبل .

وأَدِرْ ذِكْرِىَ كأْساً ما امْتَطَتْ كفَّك كاسُ
واغْتَنِمْ صَفْوَ الليالى إنما العيشُ اختلاسُ
وعَسَى أَن يَسْمحَ الدَّه رُ فقد طَالَ الشِّماسُ[1]

ألم وشكوى :

نظم ابن زيدون فى فاتحة سجنه هذه القصيدة يعاتب فيها أبا الحزم بن جهور ويدفع عن نفسه التهمة متضرعاً فى إباء، مستعطفاً فى حرقة . وإنك لتشعر خلال هذه الأبيات بألم الشاعر الذى أعيته المحنة ، ولكنه بقى متجلداً ، مدركاً لمزاياه ، غير مسترسل فى مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه التى أمضّها السجن وآذاها ، قال :

أَلم يَأْنِ أَنْ يبكى الغمارمُ على مِثْلى ... ويطلُبَ ثأْرى البرقُ منصلتَ النَّصل[2]
وَهَلاَّ أَقامتْ أَنجمُ الليلِ مأْتماً ... لتندبَ فى الآفاق ماضاعَ من نُبْلى
ولو أَنْصفَتْنى وَهْىَ أَشكالُ هِمَّتى ... لأَلْقَتْ بأَيدى الذُّلِّ لمَّا رَأَتْ ذُلِّى
ولافْتَرَقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وغاظَها ... بِمَجْمَعِها ما فَرَّقَ الدهرُ من شَمْلى
لَعَمْرُ الليالى إنْ يكُنْ طالَ نَزْعُها ... لقد قَرْطَستْ بالنَّبل فى موضع النُّبل[3]
تحلَّتْ بآدابى ، وإن مآربى ... لسانحةٌ فى عَرْض أُمنيَّةٍ عُطْل
أُخَصُّ لفهمى بالقِلَى وكأَنما ... يَبِيتُ لِذِى الفَهْمِ الزمانُ على ذَحْلِ[4]

---

(١) الشماس : التمرد والنفور . سمح الرجل وأسمح : اتصف بالجود والسهولة واليسر .
(٢) منصلت : ماض قاطع .
(٣) النزع : الرمى بالسهام والنبال . قرطست : أصابت .
(٤) الذحل : الثأر .

وأُجْفَى على نَظْمِى لِكُلِّ قِلادَةٍ ... مفصَّلةِ السِّمْطين بالمنطق الفَصل
ولو أننى أَسطيع كى أُرضى العِدا ... شَرَيْتُ ببعضِ الحلمِ حظًّا من الجهل
أَمقتولةَ الأَجفانِ مَالَكِ والهًا ... أَلَمْ تُرِكِ الأَيامُ نَجْماً هَوَى قَبْلى (١)
أَقلِّى بُكَاءً لستِ أَولَ حُرَّة ... طَوَتْ بالأَسَى كَشْحًا على مَضَض الثُّكل (٢)
وفى أُمِّ مُوسى عِبْرَةٌ إذ رَمَتْ به ... إلى اليمِّ فى التابوت فاعتبرى واسْلى (٣)
ولله فينا عِلمُ غَيْبٍ وحَسْبُنا ... به عند جَوْرِ الدهرِ من حَكَمٍ عَدْل (٤)
وإن رجائى فى الهُمام ابنِ جَهْوَرٍ ... لَمُسْتحْكمُ الأَسبابِ مستَحْصِدُ الحبل (٥)
كريمٌ عَريقٌ فى الكِرام وقلَّما ... يُرى الفرْعُ إلا مُستمِدًّا من الأَصل
نَهوضٌ بأَعباءِ المُرُوءَةِ والتُّقَى ... سَحُوبٌ لأَذيال السيادةِ والفَضْل
إذا أَشْكَلَ الخَطْبُ المُلِمُّ فإنه ... وآراءُهُ كالخَطِّ يُوضَعُ بالشَّكْل
يَرِفُّ على التأْميل لأْلاءُ بِشْره ... كما رَفَّ لأْلاءُ الحُسام على الصَّقل (٦)
محاسنُ ما للحُسْنِ للبدر عِلَّةٌ ... سوى أَنها باتَتْ تَمِلُّ فَيَسْتَملى (٧)

---

(١) الخطاب هنا لأمه ، وقد زارته فى السجن فبكت .

(٢) الكشح : الخاصرة ، وطوى كشحاً عن فلان أعرض عنه وقطعه .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك » ، فألقته فالتقطته امرأة فرعون ، والشاعر يطلب أن تعتبر بهذه القصة وتصبر .

(٤) عدل : عادل .

(٥) مستحصد : قوى متين .

(٦) يرف : يتلألأ ويبرق .

(٧) تمل مضارع أمل ، يقال أملاه القول وأمله ألقاه عليه ليكتبه ، والمعنى : هذه محاسن الممدوح الشبيه بالبدر لا عيب فيها سوى أنها تمل باتت على الشاعر وهو يكتب ويستكتبها فتمليه .

وَتَغْنِىَ عن المدح اكتفاءً بسرْوِها ... غِنَى المقلةِ الكحلاءِ عن زينةِ الْكُحل (١)

أَبا الحزم إنى فى عتابِكَ مائلٌ ... على جانبٍ تـأْوِى إليه العُلا سَهْل

حمائمُ شَكْوَى صَبَّحَتْكَ هَوادِلاً ... تناديكَ من أَفنانِ آدابِىَ الهُدْل (٢)

جَوادٌ إذا اسْتَنَّ الجيادُ إلى مَدًى ... تَمَطَّرُ فاستولى على أَمَدِ الخَصْل (٣)

ثَوَى صافِنًا فى مَرْبَطِ الهَونِ يَشْتكى ... بِتَصْهالهِ ما نَالَهُ من أَذَى الشَّكْل (٤)

أَفى العَدْلِ أَنْ وافتكَ تَتْرَى رسائلى ... فلم تترُكَنْ وضْعاً لها فى يدَىَ عَدْل

أُعِدُّكَ للجُلَّى وآمل أَن أُرى ... بِنُعماكَ موسوماً وما أَنا بالغُفْل

وماذاكَ وعْدُ النفس لى منك بالمُنى ... كأَنِّى به قد شمْتُ بارقةَ المحْل

أَئنْ زَعَم الواشون ماليس مَزْعماً ... تُعَذِّرُنى نَصْرِى وتُعْذِرنى خَذْلى (٥)

وأَصْدَى إلى إسعافكَ السائغ الجنى ... وأَضْحى إلى إنصافكَ السابغ الظِّل

ولو أَننى واقعت عَمْدًا خَطِيئة ... لما كان بِدْعاً مِنْ سَجاياكَ أَن تملى (٦)

فلم أَستَثِرْ حربَ الفِجارولم أُطِعْ ... مُسَيْلَمةً إذ قال : إنى من الرُّسْل (٧)

ومثلىَ قد تهفو به نشوةُ الصِّبا ... ومثلكَ مَنْ يعفو وما لكَ مِنْ مِثْل

---

(١) السرو : الشرف .

(٢) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام . والهدل : جمع أهدل وهو صفة الأفنان من تهدلت أى تدلت .

(٣) استن الجياد : مضت مسرعة فى السباق ، تمطر : أنصت . استولى على أمد الخصل : كناية من إحراز قصب السبق .

(٤) الصافن من الجياد : الذى قام على ثلاثة قوائم ولوى الرابعة . الشكل : شد قوائم الدابة بالشكال.

(٥) تعذر الأولى : تفقد العذر ، وتعذر الثانية : تجد العذر .

(٦) واقعت : دانيت . تملى : تمهل ولا تتعجل العقوبة .

(٧) كانت هذه الحرب فى الجاهلية بين قريش وقيس وانتهكت فيها الثانية حرمة الأشهر الحرم .

وإنى لتنهانى نُهاىَ عن التى أشاد بها الواشى ويَعْقِلنى عَقْلى[١]
أأنقُضُ فيك المدح من بعدِ قُوَّة فلا أقتدِى إلا بناقضةِ الغَزْل[٢]
ذممتُ إذًا عهدَ الحياة ولا يَزَلْ مُمِرًّا على الأيام طَعْمُهُما المحْلى[٣]
وما كنتُ بالمهدِى إلى السُّؤدَدِ الخَنا ولا بالمسىءِ القولَ فى الحسَنِ الفِعْل
ومالىَ لا أُثْنِى بآلاءِ مُنْعم إذا الروضُ أثنى بالنسيم على الطَّل
هى النعل زلَّت بى فهل أنت مُكْذِب لقيل الأعادى إنها زَلَّةُ الحَسْل[٤]
ألا إنَّ ظَنِّى بين فعليكَ واقفٌ وقوفَ الهوى بين القطيعةِ والوَصْل
فإن تُمْنَ لى منكَ الأمانى فَشِيمةٌ لذاكَ الفعالِ القَصْدِ والخُلُقِ الرَّسْلْ
وإلا جَنَيْتُ الأُنسَ من وَحْشةِ النَّوى وهولِ السُّرى بين المطية والرَّحل[٥]
سَيُغْنَى بما ضَيَّعْتَ منى حافِظٌ. وَيُلْقَى لما أَرْخَصْتَ من خَطَرى مُغلى
وأينَ جوابٌ منكَ تَرْضَى به العُلا إذَا سألتنى عنكَ ألسنةُ الحَفْل

لا يهنأ الشامت :

وقال أيضاً هذه الأبيات ، من قصيدة كتبها إلى أبى الحزم بن جهور فى السجن ، يعبر فيها عن ألمه وقلقه وعذابه ، ويشيد بشعره ويحاول أن يتأسى بصروف الأيام . قال بعد مقدمة غزلية تحدث فيها عن أرقه وسهاده لهجر حبيبته :

---

(١) يعقلنى : يحبسنى ويمنعنى .
(٢) يشير إلى الآية الكريمة : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » .
(٣) ممراً من أمر الطعام صيره مراً .
(٤) الحسل : الخسة والدناءة ، وبكسر الحاء : ولد الضب .
(٥) الرسل : السهل والطلق .
(٦) يشير إلى أنه سيرحل إن أطلقه ولم ينله أمنيته .

مَنْ يسأَلِ الناسَ عن حالى فشاهدُها ... مَحْضُ العِيانِ الذى يُغْنى عنِ الخَبَرِ

لم تَطْوِ بُرْدَ شبابى كَبْرَةٌ وأَرَى ... برقَ المشيبِ اعتلى فى عارِضِ الشَّعَرِ[1]

قبلَ الثلاثين إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ ... وللشبيبةِ غُصْنٌ غيرُ مُهْتَصَرِ[2]

ها إنها لَوْعةٌ فى الصدر قادِحةٌ ... نارَ الأَسى ومَشيبى طائرُ الشَّرَرِ

لا يَهْنَأُ الشامتَ المرتاح خاطرُهُ ... أَنى مُعَنًّى الأَمانى ضائعُ الخَطَرِ

هل الرياحُ بنجمِ الأَرضِ عاصفةٌ ... أَم الكسوفُ لغيرِ الشمسِ والقمرِ[3]

إن طالَ فى السجنِ إيداعى فلا عَجَبٌ ... قد يُودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصارمِ الذَّكَرِ

وإن يُثَبِّطْ أَبا الحزمِ الرِّضا قَدَرٌ ... عن كَشْفِ ضُرِّى فلا عتْبٌ على القَدَرِ

ما للذنوبِ ، التى جانى كبائرها ... غيرى ، يُحَمِّلُنى أَوزارَها وَزَرِى؟[4]

مَنْ لم أَزل من تأَنِّيه على ثقة ... ولم أَزل من تجَنِّيه على حَذَرِ

ذو الشِّيمة الرِّسْلِ إنْ هِيجتْ حفيظتُه ... والجانبِ السَّهْلِ والمُسْتَعتبِ اليَسَرِ[5]

وزيرُ سِلْمٍ كفاه يُمْنُ طائرِه ... شؤمَ الحروب ورأْىٌ مُحصَدُ المِرَرِ[6]

أَغنتْ قريحتُه مغْنَى تجارِبِهِ ... ونابتِ اللمحةُ العَجْلَى عن الفِكَرِ

---

(١) العارض : صفحة الخد .

(٢) كثب : قريب . مهتصر : مائل .

(٣) نجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يقم على ساق ، وهذا البيت تعليل للبيت السابق أى لا تفرح أيها الشامت فالريحَ لا تعصف إلا بماله ساق من النبات والكسوف لا يكون لغير الشمس والقمر .

(٤) الوزر : الملجأ ويقصد أبا الحزم .

(٥) الشيمة الرسل : السمحة . المستعتب : مصدر ميمى بمعنى الاستعتاب وهو الاسترضاء . اليسر : السهل .

(٦) المرر : جمع مرة وهى قوة الخلق وشدته ، ومحصد : قوى متين .

قد كنتُ أَحْسَبُنى والنجمَ فى قَرَنٍ ... ففيمَ أَصبحتُ منحطًّا إلى العَفَر [١]

أَحينَ رفَّ على الآفاقِ من أَدبى ... غرسٌ له مِنْ جَناهُ يانعُ الثمر [٢]

وسيلةٌ سَببٌ إلا تكن نسباً ... فهو الوداد صفا من غير ما كَدَر

وبائن مِنْ ثناءٍ حُسْنُه مَثَلٌ ... وَشْىُ المحاسنِ منه مُعْلَمُ الطُّرَر [٣]

يُستودَعُ الصُّحْفَ لا تخفَى نوافحُهُ ... إلا خَفاءَ نسيمِ المِسكِ فى الصُّرَر [٤]

لى فى اعتمادِكَ بالتأْميل سابقةٌ ... وهِجْرَةٌ فى الهوى أَوْلَى من الهِجَر

ففيمَ غَضَّتْ همومى من عُلا هِمَمِى ... وَحَاصَ بى مَطْلبى عن وجْهةِ الظَّفَر [٥]

هل من سبيل، فماء العتْب لى أَسِنٌ ... إلى العذوبةِ من عُتباك والخَصَر [٦]

نذرتُ شكرَكَ لا أَنْسى الوفاءَ به ... إن أَسْفَرَتْ لىَ عنها أَوجُهُ البُشَر [٧]

لا تَلْهُ عنى فلمْ أَسأَلْكَ مُعْتَسِفاً ... رَدَّ الصِّبا بعد إيفاءٍ على الكِبَر [٨]

هَبْنِى جَهِلتُ فكان الصنعُ سيِّئةً ... لا عذرَ منها سوى أَنِّى من البشر

إن السيادةَ بالإغضاءِ لابسةٌ ... بهاءَها ، وبهاءُ الحُسْن فى الخَفَر

---

(١) العفر : التراب .

(٢) رف النبات : اهتز .

(٣) الطرر : جوانب الثوب ، ومعلم الطرر : المميز بعلامات دالة .

(٤) النوافح : جمع نافجة وهى وعاء المسك . الصرر : جمع صرة وهى الكيس .

(٥) حاص : مال .

(٦) العتبى : الرضا . الخصر : البرودة . يقول : هل من سبيل إلى رضاك الذى يشبه الماء العذب الخصر فإن ماء العتب أصبح آسنا كدرا .

(٧) الضمير فى « عنها » عائد إلى العتبى ، والبشر : جمع بشرى .

(٨) أى لم يعتسف فى السؤال ولم يطلب مستحيلا ، فلم يسأله أن يرد إليه الصبا وقد أوفى على المشيب .

فاشفَعْ أَكنْ مثلَ ممطورٍ بِبَلْدَتِهِ جذلانَ بالوطن المألوفِ والوَطَر
والْبَسْ من النعمةِ الخضراءِ أَيْكَتَها ظلاًّ حراماً على الآفاتِ والغِير
نعيمَ جنَّةِ دُنْيا إنْ هىَ انصرمَتْ نَعِمْتَ بالخُلْد فى الجنات والنَّهَر

* * *

أَينَ أَيامنا ؟

قال ابن زيدون هذه الأبيات من قصيدة كتبها إلى صديقه أبى القاسم بن رفق يعاتبه ويذكر فيها أيامه الماضية معه ويصف خلالها بعض مشاهد الطبيعة :

عِذَرى ، إن عَذَلْتَ فى خلع عُذْرى ،
غُصُنٌ أَثمرتْ ذُرَاه بِبَدرِ[1]
هَزَّ منه الصِّبا فَقَوَّمَ شَطْرًا وتجافَى عنْ الوِشاحِ بشطر
رَشَأٌ أَقْصَدَ الجوانح قصدًا عن جفونٍ كُحِلْنَ عمدًا بسحر[2]
كُسِىَ الحسن فهو يفتنُّ فيهِ ساحباً ذيلَ بُردِهِ المُسْبَكِرِّ[3]
تحت ظلٍّ من الغَرارة فينا ن وَرَوْقٍ من الشبيبة نَضْر[4]
أَبرزَ الجيدَ فى غلائلَ بيضٍ وجَلاَ الخدَّ فى مجاسِد حُمْر
وتَثَنَّتْ بعِطْفِهِ إذ تهادَى خَطْرَةٌ تمزِجُ الدلال بِكِبْرِ

---

(١) عذر : أى معاذير . عذر : جمع عذار وهو الحياء ، وخلع العذار أى ترك الحياء .
(٢) أقصد : طعن .
(٣) المسبكر : المسترسل .
(٤) روق الشباب : أوله .

زارنى بعدَ هجعةٍ والثريا راحةٌ تقدِرُ الظلامَ بِشِبْر[1]
والدُّجا من نجومِهِ فى عقودٍ يتلألأْنَ من سِماكٍ ونَسْر
تحسَبُ الأُفقَ بينها لازَوَرْدًا نُثرتْ فوقَه دنانيرُ تِبْر
فرشفتُ الرضاب أعذبَ رَشْفٍ وَهَصرتُ القضيبَ ألطفَ هَصر
ونَعِمنا بلفِّ جسمٍ بجسمٍ للتصافى ، وقرع ثَغْر بثغر
يا لها ليلةً تَجَلَّى دُجاها من سَنَا وَجْنَتَيْهِ عن ضوءِ فجر
قصَّر الوصلُ عُمْرها ، وَبِوُدِّى أن يطولَ القصيرُ منها بِعُمْرِى

* * *

مَنْ عَذيرى من ريبِ دهرٍ خؤونٍ كلَّ يومٍ أُراعُ منه بغدر
كلما قلتُ : حاكَ فيه مَلامى نَهَسَتْنِى منه عقاربُ تَسرى[2]
وَتَرَتْنِى خطوبُه فى صَفِيٍّ فاضلٍ نابهٍ ، من الدهر ،وتْر[3]
بانَ عنِّى ، وكانَ روضةَ عينى ، فغدا اليومَ وهو روضةُ فكرى
فَكِهٌ يُبْهِجُ الخليلَ بوجهٍ تَرِدُ العينُ منه يَنبوعَ بِشْر
لوذعىٌّ إنْ يَبْلُهُ الخُبْرُ يوماً أخجلَ الوردَ عن خلائقَ زُهْر
وإذا غازَلَتْهُ مقلةُ طَرْفٍ كادَ من رقةٍ يذوبُ فَيَجْرِى

* * *

---

(١) تقدر : تقيس .
(٢) حاك : ريخ أو أثر فيه . نهستنى : عضتنى .
(٣) وترتنى : أصابتنى بظلم أو مكروه . وتر : فرد فذ .

يا أبا القاسم الذى كان رِدْئى وظهيرى على الزمان وذُخْرى[1]
يا أحقَّ الوَرَى بمحْضِ إخلا صى وأولاهُمُ بغايَةِ شكرى
طَرَقَ الدهرُ ساحتى من تنائ يكَ بجهْم من الحوادثِ نُكْر

* * *

ليتَ شعرى! والنفسُ تعلم أنلي سَ بمجْدٍ على الفتى «ليتَ شعرى»
هل لِحالى زماننا من رجوع ؟ أم لماضى زماننا من مَكَرّ ؟

* * *

أينَ أيامُنا وأينَ ليالٍ كرياضٍ لَبِسْنَ أفوافَ زَهْر
وزمانٌ كأنما دبَّ فيه وَسَنٌ أو هَفَا بِهِ فَرْطُ سُكر
حين نَغْدُو إلى جداولَ زُرْقٍ يتغلغلْنَ فى حدائقَ خُضْرٍ
فى هضابٍ مجلُوَّةِ الحسن حُمْرٍ وبَوَادٍ مصقولةِ النَّبْتِ عُفْرِ
نتعاطَى الشَّمُولَ مُذْهبةَ السِّرْ بالِ والجوُّ فى مطارِفِ غُبْر[2]
فى فُتُوٍّ تَوَشَّحُوا بالمعالى وَتَرَدَّوْا بكلِّ مَجْدٍ وفخر[3]
وُضَّحٌ تنجلى الغياهبُ منهم عن وجوهٍ مثلِ المصابيح غُرّ
كلُّ خِرْق يكادُ ينهلُّ ظَرفاً زانَ مَرآتُه بأكرم خُبْرِ[4]

---

(١) الردء : الناصر ، العون .
(٢) مطارف : جمع مطرف — بضم الميم وكسرها — رداء مربع من خز ذو أعلام
(١) فتو : جمع فتى .
(٢) الخرق : من الفتيان الظريف فى سماحة ونجدة . مرآته : منظره الجميل .

وسجايا كأنهنَّ كؤوسٌ أو رياضٌ قدَ جَادَها صَوْبُ قَطْر
يتلقَّى القَبُولَ منى قُبُولٌ كلما راح نفحُها ارتاح صدرى
فهو يَسْرِى مُحَمَّلاً من سجايا كَ نسيماً يُزهى بأَفوح عِطْرِ

* * *

٣ ـ المدح

ملك أطاع الله :

قال ابن زيدون هذه الأبيات يمدح أبا الحزم بن جهور ويعرّض بالوشاة بعد مطلع غزلى :

مَالى وللأَيام ؟ لجَّ مع الصِّبَا عدوانُها فكَسا العِذارَ مَشيبا
مَحَقَتْ هلالَ السِّنِّ قبلَ تمامه وذَوَى بها غُصْنُ الشباب رطيبا
لأَلَمَّ بى ما لَوْ أَلمَّ بِشَاهِقٍ لانْهالَ جانبُهُ فصار كثيبا
فلئن تَسُمْنِي الحادثاتُ فقد أَرى للجَفْنِ فى العَضْب الطَّرِير نُدوبا[1]
ولئنَ عجِبْتُ لأَنْ أُضامَ وجهْوَرٌ نِعْمَ النصيرُ لقد رأَيتُ عجيبا
مَنْ لا تُعَدِّى النائباتُ لجارِهِ زحفاً ولا تمشى الضَّرَاء دبيبَا
مَلِكٌ أَطاع اللهَ منه مُوَفَّقٌ ما زال أَواباً إليه مُنِيبا

(١) تسمنى : تجشمنى مكروهاً . الجفن : الغمد . العضب الطرير : السيف القاطع . الندوب : جمع ندب وهو الجرح وهنا أثر الصدأ الذى يعلو السيف لطول مكثه فى الغمد .
(٢) تعدى : تسرع فى العدو . يمشى الضراء : يمشى مستخفياً .

يأْتى رضاه مُعادياً ومُواليا ويكونُ فيه مُعاقِباً ومُثيبا
مُتَمرِّس بالدهر يَقْعُدُ صَرْفُهُ إنْ قامَ فى نادى الخطوب خطيبا
بَسَّامُ ثغرِ البِشر إن عَقَد الحُبا فرأَيتَ وَضَّاحاً هناك مَهيبا[1]
مَلأَ النواظرَ صامتاً ولربما ملأَ المسامعَ سامعاً ومجيبا
عِقْدٌ تألَّفَ فى نظام رياسة نَسَقَ اللآلئَ مُنْجِباً ونَجيباً
يغشَى التجارِب كهلهُمْ مُسْتَغنِياً بقريحةٍ هى حَسْبُهُ تجريبا
وإذا دعوت وَليدهم لعظيمةٍ لباكَ رَقْرَاقَ السماح أديبا
هِمَمٌ تنافِسُها النجومُ وقد تَلاَ فى سُؤْدَدٍ منها العقيبُ عَقيبا
ومحاسنٌ تَنْدى رقائقُ ذِكرها فتكادُ تُوهمك المديحَ نسيبا
كالآسِ أخضرَ نَضْرة والوردِ أَحْ مَرَ بهجةً ، والمِسْكِ أَذْفَرَ طِيبا[2]
وإذا تَفَنَّنَ فى اللسان ثناوُه فافتنَّ لم يكن المرادُ غريبا
غَالَى بما فيه فَغَيْرُ مُواقِعٍ سَرَفاً ولا مُتَوَقِّعٍ تكذيبا[3]
كان الوشاةُ وقد مُنيتُ بإفكهم ، أسباطَ يعقوبٍ وكنتُ الذيبا[4]
وإذا المُنَى بِقَبُولكَ الغَضِّ الجنى هُزَّتْ ذوائبُها فلا تثريبا

---

(١) الحبا : جمع حبوة ، وعقد الحبا : جلس ضاماً رجليه إلى بطنه .

(٢) أذفر : ذكى طيب الريح .

(٣) مواقع : مدان . المتوقع : المنتظر ، يقول : مهما بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانياً إفراطاً ولا متخوناً تكذيباً .

(٤) يريد أنه برىء مما ابتلى به من كذبهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

أنا سيفك الصَّدِئُ الذى مهما تشأْ نُعِدِ الصِّقال إليه والتَّذْريبا[١]
كم ضاق بى من مذهبٍ فى مَطْلَبٍ فَشَنَيْتَهُ فُسُحَ المجال رحيبا
وَزَهَا جنابُ الشكر حين مَطَرْتَه بسحائبِ النُّعْمى فَرُدَّ خصيبا

* * *

فرحة الشاعر :

كتب الشاعر هذه القصيدة يمدح بها صديقه أبا الوليد بن جهور بعد أن اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه، وفيها تتجلى فرحة الشاعر بمليكه واستبشاره بولايته ، قال بعد مطلع غزلى يحن به إلى ولادة : *

للجهورىِّ أَبى الوليد خلائقٌ كالرَّوْضِ أضحكَهُ الغمامُ الباكى
مَلِكٌ يسوسُ الدهرَ منه مُهَذَّبٌ تدبيرُهُ للمُلْكِ خيرُ مِلاك[٢]
جارَى أَباه بعدما فاتَ المَدى فتلاهُ بين الفَوْت والإدراك
شمسُ النهارِ وبدرُهُ ونجومُهُ أَبناؤه مِن فَرْقَدٍ وَسِمَاك[٣]
يستوضِحُ السارونَ زُهْرَ كواكبٍ منهم تُنِير غياهِبَ الأَحْلاك
بُشْراكِ يا دنيا وبشرانا معاً هذا الوزيرُ أَبو الوليدِ فَتاك
تُلْقى السيادةَ ثمَّ إن أَضْلَلْتِها ومتى فَقَدتِ السَّرْوَ فهو هناك[٤]
وإذا سمعتِ بواحدٍ جُمِعتْ له فِرَقُ المحاسن فى الأَنام فَذَاكِ

---

(١) التذريب : التحديد .
(٢) ملاك الأمر : قوامه .
(٣) الفرقد والسماك : نجمان نيران .
(٤) تلقى : تجدى ، والخطاب للدنيا . ثم : هناك . السرو : الشرف .
* انظر منتخبات الغزل ص ٢٨١ من هذا الكتاب .

صمصامُ بادِرَةٍ وطَوْدُ سَكِينة وجوادُ غايات وجِذْل حِكاك[١]
طَلْقٌ يُفَنَّدُ فى السَّماح وجاهلٌ مَنْ يستشفُّ النارَ بالمِحراك[٢]
صَنَعُ الضميرِ إذا أَحال بمُهْرَقٍ يمناه فى مَهَلٍ وفى إيشاك[٣]
نظَم البلاغةَ فى خلال سطوره نَظْمَ اللآلى التُّوم فى الأَسلاك[٤]
نادى مساعِيَهُ الزمانُ منافساً أَحرزتِ كلَّ فضيلةٍ فكَفاك[٥]
ما الوَرْدُ فى مَجْناه سامَرَهُ النَّدى مُتَحلِّياً إلا ببعْضِ حُلاك
كَلاَّ ولا المسكُ النَّمومُ أَريجُهُ متعطرًا إلاَّ بوَسْمِ ثَناك
اللهوُ ذِكْرُكِ لا غِناءُ مُرَجِّعٍ يَفْتَنُّ فى الإطلاق والإمساك[٦]
طارت إليكِ بأَوليائكِ هِزَّةٌ تهفو لها أَسفاً قلوبُ عِداك
يأَيُّها القمرُ الذى لِسَنائه وسَناهُ تعشو السَّبْعُ فى الأَفلاك[٧]
فَرَحُ الرِّياسةِ إذْ مَلَكْتَ عِنانَها فَرَحُ العروس بِصِحَّةِ الإملاك[٨]
مَن قال إنكَ لستَ أَوْحَدَ فى النُّهَى والصالحاتِ فَدَانَ بالإشراك

---

(١) صمصام بادرة : سيف حدة . الجذل : عود الشجرة ، وجذل الحكاك : جذل ينصب لتحتك به الإبل الجربى .

(٢) يقول إنه باش الوجه سمح والكرم طبيعة فيه وليس يزيده تفنيد الجاهلين إلا تمادياً فى الكرم كالنار يزيدها المحراك اشتعالا .

(٣) صنع الضمير : صناع حاذق . المهرق : الصحيفة . إيشاك : إسراع .

(٤) توم اللآلى : الكبيرة منها .

(٥) النموم : الساطع . الثنا : الثناء .

(٦) مرجع : مردد . الإطلاق والإمساك : الانطلاق بالصوت ثم النزول به .

(٧) السناء بالمد : الرفعة والشرف ، والسنا بالقصر : الضوء . تعشو : تقصد .

(٨) الإملاك : الزواج .

قَلِّدْنِيَ الرأْيَ الجميلَ فإنه حَسْبِي ليومَيْ زينةٍ وعِراك
وإذا تحدَّثَتِ الحوادثُ بالرَّنا شَزْرًا إلى فقل لها : إياك[1]
والدَّجْنُ للشمس المنيرةِ حاجبٌ والجَفْنُ مَثْوَى الصارمِ الفتَّاك
دامتْ حياتُكَ ما استُدِمْتَ فلم تزل تحْيا بِكَ الأَخطارُ بعدَ هلاك

* * *

ملتمس الوزارة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة فى مدح أبى الوليد بن جهور (لا فى مدح أبى الحزم بن جهور كما جاء فى الديوان) ، وفيها نجد الشاعر يعرّض بمطلب لعله منصب الوزارة بعد أن أبدى ابتهاجه فى القصيدة السابقة باعتلاء أبى الوليد عرش قرطبة ، وهو يفتتحها بمطلع غزلى تقليدى ثم يسترسل فى مدح مليكه وتعداد مناقبه فى جو من النشوة يدل على إقبال الدنيا عليه . قال بعد المقدمة الغزلية ومطلعها :

أَجَلْ إن لَيْلَى حيثُ أَحياؤُها الأَسْدُ مهاةٌ حَمَتْها فى مراتعها أُسْدُ

* * *

هو الدهرُ مهما أَحسنَ الفعلَ مرةً فمن خطأٍ ، لكنْ إساءَتُهُ عَمْدُ
حذارك أَن تغترَّ منه بجانبٍ ففى كل وادٍ من نوائبه سعد[2]
ولولا السراةُ الصِيدُ من آل جَهْور لأَعْوَزَ من يُعْدِى عليه متى يَعْدو[3]

---

(١) الرنا : النظر .

(٢) يقال : « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » هو مثل يضرب فى الشر ويرياءون به أن فى كل جهة كفاءها من الشر والأذى .

(٣) أعدى فلاناً على فلان : نصره وأعانه وقواه .

ملوكٌ لبسنا الدهرَ فى جَنَبَاتِهم رقيقَ الحواشى مثلَ مافُوِّفَ البُرْد[١]
بحيث مَقيلُ الأَمْنِ ضافٍ ظِلاَلُه وفى منهلِ العَيْشِ العذوبةُ والبَرْد[٢]
هم النفر البيضُ الذين وُجُوهُهُمْ تروقُ فتستشفِى بها الأَعينُ الرَّمْدُ
كرامٌ يمُدُّ الراغبون أَكفَّهُم إلى أَبحرٍ منهم لها باللُّهَا مَدُّ[٣]
فلا يُنْعَ منهم هالكٌ ،فهو خالدٌ بآثاره إن الثناءَ هو الخُلْد
أَليس أَبو الحزم الذى غِبَّ سَعْيِه تبصَّر غاوينا فبانَ له الرُّشْد
أَغرُّ تَمَهَّدْنا به الخفضَ بعدما أُقضَّ علينا مَضجَعٌ ونبا مَهْدُ
فشمَّرَ حتى انجابَ عارضُ فتنةٍ تألَّقَ منها البرقُ واصطخبَ الرعد[٤]
هو الأَثرُ المحمودُ إن عاد ذِكره تطلَّعَتِ العلياءُ واستشرفَ المجد
تولى فلولا أَن تَلاه محمدٌ لأَوطأَخَدَّ الحُرِّ أَخمَصَهُ العبْدُ[٥]
مليكٌ يسوسُ المُلْكَ منه مَقَلِّدٌ رَوَى عن أَبيه فيه ماسَنَّهُ الجَدُّ
سجيتُه الحُسنَى وشيمتُهُ الرِّضا وسيرتُه المثلى ومذهبُهُ القَصْد
هُمامٌ إذا زان النَّدِىَّ بحبْوَةٍ ترجَّحَ فى أَثنائها الحسب العَدُّ[٦]
زعيمٌ لأَبناءِ السيادةِ بارعٌ عليهم به تُثْنى الخناصر إن عُدُّوا

---

(١) فوف : رقق . البرد : الثوب .
(٢) مقيل : مكان القيلولة ، وهو هنا بمعنى منزل . ضاف : سابغ .
(٣) اللها جمع لهوة : العطايا .
(٤) يشير إلى قيام أبى الحزم بشئون قرطبة بعد الفتنة الطويلة آخر عصر بنى أمية .
(٥) يقول لولا أن أبا الوليد محمد بن جهور قد خلف أبا الحزم لساءت العاقبة وسادت دولة العبيد على دولة الأحرار فأذلوهم وداسوا خدودهم بأرجلهم .
(٦) العد : الكثير .

بعيدمنال الحال دانى جَنى النَّدى إذا ذُكِرَتْ أَخلاقُهُ خَجِل الوَرْدُ
مُمِرٌّ لمن عاداه إذ أَولياؤُهُ يَلَذُّ لهم كالماءِ شِيبَ به الشَّهد[1]
إذا اعترف الجانى عفاعَفْوَ قادرٍ عَلاَ قدرُهُ عن أَن يَلِجَّ به حِقْد
له عَزْمَةٌ مطويةٌ فى سَكِينة كمالاَنَ متنُ السيفِ واخشوشنَ الحدُّ
ذراعٌ ، لما يأْتى به الدهرُ ، واسعٌ وباعٌ ، إلى ما يُحْرِزُ الفخرَ ممتدُّ
هوالملك المشفوعُ بالنُّسكِ مُلْكُهُ فللّهِ ما يَخْفَى ولله ما يَبْدُو
إلى الله أَوَّابٌ ولله خائفٌ وبالله معتدٌّ وفى الله مُشْتَدُّ
فديتُكَ إنى قائلٌ فمعرِّضٌ بأَوطارِ نَفْسٍ منك لم تَقْضِها بعد[2]
مُنًى كالشجادون اللَّهاة تعرَّضَت فلم يكُ للمصدورِ من نَفْثِها بُدُّ
أَمِثْلَىَ غُفْلٌ خاملُ الذِّكْرِ ضائعٌ ضَياعَ الحسامِ العَضْبِ أَصدأَه الغِمد[3]
أَنا السيفُ لا ينبو مع الهَزِّ غَرْبُهُ إذامانبا السيفُ الذى تَطْبَعُ الهند
بدأْتَ بنُعمى غَضَّةٍ إن تُوالِها فَحُسْنُ الأَلى فى أَن يواليها سَرْدُ[4]
لعَمرك ما للمال أَسعى فإنما يرى المالَ أَسنى حَظِّهِ الطَّبَعُ الوَغْدُ
ولكن لحال إن لَبِسْتُ جمالَها كسوتُكَ ثوبَ النُّصْحِ أَعلامُه الحمد[6]
أَتتك القوافى شاهداتٍ بما صَفا من الغيبِ فاقبلْها فما غَرَّك الشهْدُ

(١) ممر : من المرارة .
(٢) الشجا : ما يعترض فى اللهاة أو الحلق .
(٣) العضب : القاطع .
(٤) الغرب : الحد . تطبع : تصنع .
(٥) الألى : النعمة . سرد : تتابع .
(٦) يشير فى هذا البيت إلى الوزارة التى يرغب بها .

مدح وتهنئة :

هاهوذا ابن زيدون فى إشبيلية يتفيأ ظلال النعيم بقرب مليكها المعتضد ، بعد أن جعله وزيره وأغدق عليه نعمه وإحسانه . فليلهج لسان الشاعر بالشكر له ولينثر فوق تاجه درر شعره . وهذه القصيدة إحدى مدائحه الرائعة قالها يهنئه بحلول عيد الأضحى سنة ٤٤٥ ، وقد ذكر ابن بسام طرفاً منها فى ذخيرته ونقد بعض أبياتها ، وذكر أيضاً ابن خاقان طائفة منها فى قلائده . وإننا لنشعر ونحن نتلو أبياتها بذلك النسج المتماسك وتلك الديباجة الفخمة التى تنم عن قوة أسره للكلام وحسن اطلاعه على شعر الفحول . وقد رأى ابن خاقان فى مطلعها الغزلى حنيناً لولادة وعهدها ونحن نرى كما أشرنا أنه مطلع تقليدى ليس فيه ما يربطه بولادة ، فلنستمع إلى الشاعر ولنتدبر معاً هذه الجزالة وهذه القوة :

أَمَا فى نسيم الريح عَرْفٌ مُعَرِّفُ لناهل لِذَاتِ الوَقْفِ بالجِزْعِ موقِفُ[1]
فنقضِيَ أوطارَ المُنى مِن زيارةٍ لنا كَلَفٌ منها بما نَتَكَلَّفُ[2]
ضمانٌ علينا أن تُزَارَ ودونَها رقاقُ الظُّبَا والسَّمْهَرِىُّ المثقَّفُ[3]
وقومٌ عِدًى يُبْدُون من صفحاتِهِمْ وأَزْهَرُهَا من ظُلمة الحِقْدِ أَكْلَفُ[4]
غيارَى يَعدُّون الغَرَامَ جَرِيرةً بها ،والهَوَى ظُلماً يَغِيظُ. ويُؤْسِف
يَودُّون لو يَثْنى الوعيدُ زِمَاعَنَا وهيهاتَ رِيحُ الشوقِ من ذاكَ أَعْصِفُ[5]
يسيرُ لدى المشتاقِ فى جانب الهوى نَوَى غُرْبَةٍ أَو مَجْهَلٌ مُتَعَسِّف

(١) العرف . الشذى والرائحة الطيبة . الوقف : السواد . الجزع : منعطف الوادى .
(٢) كلف : ولع .
(٣) الظبا : جمع ظبة وهى حد السيف . السمهرى : الرمح . المثقف : المقوم .
(٤) يبدون من صفحاتهم : كناية عن العداوة . أزهر : مشرق .
(٥) الزماع : العزم على الزيارة .

هل الرَّوْعُ إلا غمرةٌ ثم تنجلى ... أَم الهَوْلُ إلا غمةٌ ثم تُكْشَف

وفى السِّيرَاءِ الرَّقْمِ وَسْطَ قبابهِمْ ... بعيدُ مَناطِ القُرْطِ أَحْورُ أَوْطَفُ[١]

تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبْلٌ منعَّمٌ ... تأَوَّدَ فى أَعلاهُ لَدْنٌ مهفهف[٢]

فللعانِكِ المرتجِّ ما حازَ مئزرٌ ... وللغُصُنِ المهتزِّ ما ضمَّ مطْرَف[٣]

حبيبٌ إليه أَن نُسَرَّ بوصْلِهِ ... إذا نحنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَا ونُسْعَف

وليلةَ وافينا الكثيبَ لموعِدٍ ... سُرَى الأَيْمِ لم يُعْلَمْ لِمَسْراهُ مَزْحَف[٤]

تهادَى أَناةَ الخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الحَشَا ... كمارِيعِ يَعْفُورُ الفَلاَ المُتَشَرِّف[٥]

فما الشمسُ رَقَّ الغيمُ دون إياتِها ... سوى ما أَرى ذاكَ الجبينِ المَنَصَّف[٦]

فديتُكِ أَنَّى زرتِ نورُكِ فاضحٌ ... وعِطْرُكِ نَمَّامٌ وَحلْيُكِ مُرْجِف[٧]

هبيكِ اعتَرَرْتِ الحىَّ واشيكِ هاجعٌ ... وفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ وليلُكِ أَغْطف[٨]

فأَنَّى اعتسفتِ الهولَ خطوكِ مُدْمَجٌ ... ورِدْفُكِ رَجْراجٌ وخصرُكِ مُخْطَف[٩]

لجاجٌ تمادِى الحبِّ فى المعشرِ العِدا ... وأُمُّ الهوى الأُفْقَ الذى فيه نُشْنَفُ[١٠]

---

(١) السيراء : ثوب مخطط . الرقم : المرقوم أى المعلم . أوطف : طويل شعر أهداب العين .

(٢) عبل : أى ردف ضخم .

(٣) العانك . من الرمال ما تعقد وارتفع .

(٤) الأيم : الحية وذكر الأفعى .

(٥) يعفور : ظبى . المتشرف : المستطلع من مكان عال .

(٦) إياة الشمس : حسنها وضوءها . المنصف : الذى عليه النصيف. وهو الخمار .

(٧) مرجف : من أرجف إذا تحرك واضطرب .

(٨) اعتررت الحى : جئته وجزت به على غير علم . فرعك غربيب : شعرك شديد السواد . أغطف : حالك السواد.

(٩) مدمج : داخل بعضه فى بعض . مخطف : ضامر .

(١٠) أم الهوى : قصد الهوى . نشنف : نبغض .

وأَنْ نَتَلَقَّى السخطَ عانين بالرِّضى ... لِغَيْرانَ أَجْفَى ما يُرى حين يَلْطُف

كفانا من الوصل التحيةُ خِلْسةً ... فيومٌ طَرَفٌ أَو بنانٌ مُطرَّفُ[1]

خليليَّ مهلاً لا تلوما فإنني ... فؤادى أَليفُ البثِّ والجسمُ مُدْنَفُ[2]

وأَعنفُ مايلقَى المحبُّ لجاجةً ... على نفسهِ فى الحبِّ حينَ يُعَنَّفُ

وإنى ليستهوينىَ البرقُ صَبْوَةً ... إلى برقِ ثغرٍ إن بدا كادَ يَخْطَفُ

وما وَلَعى بالراح إلا تَوَهُّمٌ ... لِظَلْمٍ به كالراح لو يُتَرَشَّفُ[3]

وتُذْكِرُنى العِقدَ المُرِنَّ جُمانُهُ ... مُرِنَّاتُ وُرْقٍ فى ذُرَى الأَيْكِ تَهْتِفُ[4]

فماقبلَ منأَهوى طوى البدرَ هَودجٌ ... ولا صانَ ريمُ القفرِ خدرٌ مُسَجَّفُ[5]

ولا قبلَ عبَّادٍ حوى البحرَ مجلسٌ ... ولا حمل الطَّوْدَ المُعَظَّمَ رَفْرَفُ[6]

هو المَلِكُ الجَعْدُ الذى فى ظلاله ... تكفُّ صروفُ الحادثاتِ وَتُصْرَفُ[7]

هُمَامٌ يزين الدهرَ منه وأَهلَهُ ... مليكٌ فقيهٌ كاتبٌ متفلسف

يتيه بمرقاهُ سريرٌ ومنبرٌ ... ويَحْمَدُ مسعاهُ حُسامٌ ومصحف

رَوِيَّتُهُ فى الحادثاتِ الإِدِّ لحظةٌ ... وتوقيعُهُ الجالى دُجَى الخطبِ أَحْرُفُ[8]

---

(١) مطرف : مصبوغ بالحناء .

(٢) مدنف : مريض من الوجد .

(٣) الظلم : الريق وماء الأسنان .

(٤) الجمان : حب اللؤلؤ . الورق : جمع ورقاء وهى الحمامة .

(٥) ريم : ظبى . مسجف : عليه ستور .

(٦) الرفرف : كل ما أعد للجلوس وهنا العرش .

(٧) الجعد : شديد الأسر .

(٨) الإد : العظيم . يريد أن توقيعاته موجزة أى بليغة .

يَذِلُّ له الجبارُ خيفةَ بأْسه ويعنو إليهِ الأَبلجُ المتغطرف[1]
حِذَارَكَ إذ تبغِي عليه من الردَى ودونَكَ فاستوفِ المُنَى حين تُنصِف
ستعتامُهُمْ فى البَرِّ والبحر بالتَّوَى كتائبُ تُزْجَى أَو سفائنُ تُجْدَف[2]
أَغرُّ متى نَدْرُس دواوينَ مجدِهِ يَرُقْنا غريبٌ مجملٌ أَو مُصنَّف[3]
إذا نحن قرَّظناه قَصَّرَ مُطْنِبٌ ولم يتجاوزْ غايةَ القصدِ مُسْرف
وأَرْوَعُ لا الباغى أَخاه مُبلِّغٌ مُناه ولا الراجى نداه مُسَوَّف
مُمَرُّ القُوَى لا يملأُ الخطبُ صدرهُ وليس لأَمرٍ فائتٍ يتلهف[4]
له ظِلُّ نُعمى يذكر الهمُّ عنده ظِلالَ الصِّبا بل ذاك أَندى وأَوْرف[5]
جحيمٌ لعاصِيه يُشَبُّ وَقُودُه وجنة عدنٍ للمطيعين تُزْلَف[6]
مَحاسِنُ غَرْبُ الذم عنها مُفَلَّلٌ كَهَامٌ وشملُ المجدِ فيها مُؤَلَّف[7]
تَنَاهَتْ فَعِقْدُ المجدِ منها مُفَصَّلٌ سَنَاءً وَبُرْدُ الفَخْرِ فيها مُفَوَّف[8]
طَلَاقَةُ وجهٍ فى مضاءٍ كَمِثْلِ ما يَرُوقُ فِرِنْدُ السيفِ والحَدُّ مُرهف[9]

(١) الأبلج المتغطرف : السيد الشريف .
(٢) ستعتامهم : ستختارهم . التوى : الهلاك .
(٣) المجمل : المحتاج إلى التفسير والبيان . المصنف : المميز بعضه من بعض . وفى هذا البيت تصحيح ولعله يريد ذكر « الغريب المصنف » وهو كتاب لأبى عبيد القاسم بن سلام .
(٤) ممر القوى : أصله شديد الفتل ، فهو وصف من أوصاف الحبل ، ويريد به أنه مستحكم القوى .
(٥) الهم : الشيخ الكبير .
(٦) تزلف : تقرب .
(٧) غرب الدم : حده . كهام : كليل .
(٨) المفصل : من الفاصلة وهى الخرزة تفصل بين الخرزتين فى العقد . مفوف : رقيق .
(٩) فرند السيف : جوهره ولمعانه .

على السيفِ من تلك الشهامة مِيسَمٌ ... وفى الروض من تلك الطلاقة زُخْرُف

سجايا لمن والاه كالأُرْى يُجتَنَى ... تعودُ لمن عاداه كالشَّرْى يُنْقَف[1]

يراقب منه اللهَ (معتضدٌ) به ... يدَ الدهر، يقسو فى رضاه ويرأَف[2]

فقلْ للملوك الحاسديه متى ادَّعى ... سباقَ العتيقِ الفائتِ الشأْوِ مُقْرِف[3]

أليس بنو عبَّادٍ القِبْلةَ التى ... عليها لآمالِ البريةِ مَعْكَف

ملوكٌ يُرى أحياؤهم فخرَ دهرِهِمْ ... ويَخْلُفُ موتاهم ثناءٌ مُخَلَّف

بهم باهتِ الأَرضُ السماءَ فأَوجهٌ ... شُمُوسٌ وأَيدٍ من حَيا المزْنِ أَوْكَف[4]

أشارحَ معنى المجدِ وهو مُعَمَّس ... ومُجْزِلَ حظِّ الحمد وهو مُسَفْسِف[5]

لعمرُ العِدا المستدرِجيكَ بزعمهم ... إلى غِرَّةٍ كادت لها الشمس تُكسف[6]

لَكَالُوكَ صاعَ الغدرِ لؤمَ سَجيةٍ ... وَكِيلَ لهم صاعُ الجزاءِ المطَفَّف[7]

لقد حاولوا العظمى التى لا شَوَى لها ... فأَعجلَهم عَقْدٌ من الهَمِّ مُحْصَف[8]

ولما رأيتَ الغدرَ هبَّ نسيمُه ... تلقَّاه إعصارٌ لبطشِكَ حَرْجَف[9]

---

(١) الأرى : العسل . الشرى : الحنظل . ينقف : يشق لأخذ ما فى داخله .

(٢) يد الدهر : مدى الدهر . يريد أنه يرأف ويعنف دائماً فى سبيل مرضاة الله وحده .

(٣) العتيق : النجيب . الشأو : الغاية ، والفائت الشأو : السابق . مقرف : هجين .

(٤) أوكف : أغزر .

(٥) معمس : مبهم . مسفسف : هابط ونازل .

(٦) غرة : غفلة . لعمر العدا : يقسم بحياتهم متهكماً للإشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا ، وهنا يبدأ فى التكلم عن حروب المعتضد وانتصاراته .

(٧) فى الأصل المطفف : المنقوص المبخوس وقد يستعمل بمعنى الوافى التام وهو المراد هنا .

(٨) لا شوى لها : لا تصيب الأطراف بل تصيب المقاتل . فأعجلهم عقد : أى رأى وتدبير من عزمك . محصف : محكم سديد .

(٩) الحرجف : البارد وصف بها الإعصار .

أَظَنَّ الأَعادى أَنَّ حزمَكَ نائمٌ ... لقد تَعدُ الفَسْلَ الظنونُ فَتُخْلِفُ[1]

دواعِي نفاقٍ أَنذرتْكَ بأَنه ... سيَشْرَى ويذوَى العضومن حيث يشأَفُ[2]

تحمَّلتَ عِبءَ الدهر عنهم وكلُّهم ... بنعماكَ موصولُ التَّنَعُّم مُتْرف

فإن يكفروا النُّعمى فتلك ديارُهُمْ ... بسفكِكَ قاعٌ صَفصفُ الرَّسْمِ تُنْسف

ويُشْرَاكَ عيدٌ بالسرورِ مُظَلَّلٌ ... وبالحظ فى نَيْل المنى مُتكنِّفُ[3]

بشيرٌ بأَعيادٍ تُوافِيكَ بعدَهُ ... كمايَنْسَقُ النظمَ الموَالى وَيرْصف

تُجَرِّدُ فيه سيفَ دولتك الذى ... دماءُ العِدَا دأْباً بِغَرْبَيْهِ تُظْلَف[4]

هو الصارمُ العَضْبُ الذى العزمُ حَدُّهُ ... وَحِلْيَتُهُ بَذْلُ النَّدى والتَّعَفُّف

همامٌ سَمَا للمُلْكِ إذ هو يافعٌ ... وتَمَّتْ لَهُ آياتُهُ وهو مُخْلِفُ[5]

كريمٌ يعدُّ الحمدَ أَنفَسَ قِنْيَةٍ ... فيُولَعُ بالفعل الجميلِ ويُشْغَفُ[6]

غَدَا بخميسٍ يُقْسِمُ الغيمُ إنه ... لأَحفلُ منه مكفهرًّا وأَكْثَف[7]

هو الغيم من زُرْقِ الأَسِنَّةِ برقُهُ ... وللطبل رعدٌ فى نواحيه يَقْصِف

ولما قضينا ما عَنانا أَداؤه ... وكلٌّ بما يرضيكَ داعٍ فَمُلْحِف[8]

---

(١) الفسل : الدنىء الرذل .

(٢) يشرى العضو : يظهر عليه ورم وقروح تحتاج إلى الكى . يشأف : تكوى شأفته أى قرحته لتذهب بالكى .

(٣) متكنف : مشمول .

(٤) بغربيه : بحديه . تظلف : تهدر .

(٥) الغلام اليافع : الذى شارف الاحتلام . المخلف : الذى اختلف نظر الناس فيه فبعضهم يقول قد احتلم وأدرك وبعضهم يقول غير مدرك .

(٦) قنية : مكسب .

(٧) خميس : جيش . مكفهراً : مسوداً .

(٨) أداؤه : أى أداء الصلاة فى العيد . ملحف : ملح .

قرنًا بحمد الله حمدَكَ إنه لأوكدُ ما يُحظى لديه ويُزْلِفُ
وَعُدْنا إلى القصر الذى هو كعبةٌ يُغادِيهِ منا ناظرٌ أو مُطَوِّف
فإذ نحن طالعناه والأُفقُ لابسٌ عجاجتَهُ والأَرضُ بالخيل تَرْجُف[1]
رأَيناكَ فى أعلى المُصَلَّى كأَنما تَطَلَّعَ من محرابِ داودَ يوسف
ولما حضرنا الإِذْنَ والدهرُ خادمٌ تُشيرُ فَيُمْضِى والقضاءُ مُصَرِّف
وصلنا فقبلنا النَّدَى منك فى يدٍ بها يُتْلَف المالُ الجسيم ويُخْلَف
لقدجُدْتَ حتى مابنفسٍ خَصاصَةٌ وأَمَّنْتَ حتى ما بنفس تَخَوُّفُ[2]
ولولاكَ لم يسهُلْ من الدهر جانبٌ ولا ذَلَّ منقادٌ ولا لَانَ مِعْطَف[3]
لك الخيرُ أَنَّى لى بشكركَ نَهْضَةٌ وكيفَ أُؤدى فرضَ ما أَنتَ مُسْلِف[4]
أَفدتَ بهيمَ الحالِ منىَ غُرَّةً يقابلها طرفُ الجَموح فَيَطْرَف[5]
وَبَوَّأْتَهُ دنياكَ دارَ مُقامة بحيث دَنَا ظِلٌّ وذُلِّلَ مَقْطَف
وكم نعمةٍ أَلْبَسْتُها سُنْدسيةٍ أُسَرْبَلُها فى كلِّ حين وأُلْحَفُ[6]
مواهبُ فياضِ اليدين كأَنما من المُزْنِ تُمْرَى أَومن البحرِ تُغْرَف[7]
فإن أَكُ عَبْدًا قدْ تَملَّكْتَ رِقَّهُ فأَرفعُ أَحوالى وأَسْنى وأَشْرَف

---

(١) العجاجة : الغبار فى الحرب .
(٢) خصاصة : فقر .
(٣) المعطف : السيف .
(٤) نهضة : قدرة . مسلف : مقدم .
(٥) بهيم : أسود . يقول : أكسبت سواد الحال منى غرة بيضاء يواجهها طرف الطموح الذى يمد بصره إلى الشىء فيطرف أى من قولهم فلان مطروف العين أى محملق ذاهل .
(٦) أسربلها : ألبسها .
(٧) تمرى : تدر وتسكب .

٤ ــ الرثاء

توفى أبو الحزم سنة ٤٣٥ للهجرة وتولى من بعده ابنه أبو الوليد ، فنظم الشاعر هذه القصيدة التى يرثى بها الفقيد ويعزى الابن ويمدحه . ويبدو أن ابن زيدون قد أعجب بصياغة هذه القصيدة فردد كثيراً من معانيها فى مرثياته الهامة ؛ ولذا كانت قصيدته التى رثى بها أم أبى الوليد تنظر إلى هذه المرثية وهى على وزنها ورويها ، وقصيدته التى رثى بها المعتضد وعزى المعتمد هى أيضاً على وزنهما ورويهما وفيها يكرر الشاعر كثيراً من أبيات القصيدة السابقة . ونلاحظ أن الشاعر يتخذ رثاء الملوك ومن يلوذ بهم وسيلة لمدح من سيخلفهم . وهو فى هذا الغرض فاتر العاطفة على رغم جودة سبكه ومتانة صوغه قال :

أَلم ترَ أَنَّ الشمس قد ضَمَّها القبرُ ... وأَنْ قد كفانا فَقْدَها القمرُ البدْرُ
وأَنَّ الحَيَا إِنْ كان أَقْلَعَ صَوْبُهُ ... فقد فاضَ للآمال فى إِثْره البحرُ [1]
إِساءةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الفعلَ بعدها ... وذنبُ زمانٍ جاءَ يَتْبَعُهُ العُذْر
فلا يَتَهَنَّ الكاشحون فما دَجَا ... لنا الليلُ إِلا ريثما طَلَعَ الفجر [2]
وإِن يكُ ولَّى جَهْوَرٌ فمحمد ... خليفتُهُ العَدْلُ الرِّضَا وابنُهُ البَر
فتى يجمع المجدَ المفرَّقَ هَمُّهُ ... وَيُنْظَمُ فى أَخلاقه السُّؤدَدُ النَّثْر
أَهابتْ إِليه بالقلوب محبَّةٌ ... هى السحرُ للأَهواءِ بل دونها السحر
سرَتْ حيث لا تسرى من الأَنفس المنى ... ودبَّتْ دبيباً ليس تُحْسِنُهُ الخمر
لبِسْنا لديه الأَمْن تندَى ظلالُهُ ... وزهرَةَ عيشٍ مثلَ ما أَينعَ الزهر

---

(١) الحيا : المطر . صوبه : انصبابه .
(٢) الكاشحون : الأعداء .

وعادتْ لنا عاداتُ دنيا كأنها ... بها وَسَنٌ أو هزَّ أعطافَها سكر
مليكٌ له منا النصيحةُ والهوى ... ومنه الأيادى البيضُ والنِّعم الخُضْر
فقل للحَيَارَى قد بدا عَلَمُ الهُدى ... وللطامع المغرورِ قد قُضِيَ الأمر
أبا الحزم قد ذابتْ عليك من الأسى ... قلوبٌ مُناها الصبرُ لو ساعَدَ الصبر
دع الدهرَ يفجعْ بالذخائر أهلَه ... فما لنفيسٍ مُذْ طواكَ الرَّدى قَدْر
تهونُ الرزايا بعدُ وَهْى جليلةٌ ... ويُعْرَفُ مذ فارقْتَنَا الحادثُ النُّكرُ
فقدناكَ فِقْدَانَ السحابة، لم يزل ... لها أثرٌ يُثْنِى به السهل والوعر
مساعيكَ حَلْىٌ لليالى مُرَصَّعٌ ... وذِكْرُكَ فى أردانِ أيامها عِطْر[1]
فلا تَبْعُدَنْ إن المنيةَ غايةٌ ... إليها التناهى طالَ أو قَصُرَ العُمْر
عزاءً فَدَتْكَ النفسُ عنه فإن ثَوَى ... فإنك لا الوانى ولا الضَّرِعُ الغَمْر[2]
وما الرزءُ فى أن يُودَع التُّرْبَ هَالكٌ ... بل الرزءُ كلُّ الرزءِ أن يَهْلِكَ الأجر
أمامَكَ مِنْ حفظِ الإلهِ طليعةٌ ... وحولَكَ من آلائه عسكرٌ مَجْر[3]
وما بكَ من فقرٍ إلى نصر ناصرٍ ... كَفَتْكَ من الله الكلاءةُ والنصر[4]
لكَ الخيرُ إنى واثقٌ بكَ شاكرٌ ... لِمَثْنى أياديكَ التى كُفْرُها الكُفْر[5]

---

(١) أردان : أكمام .
(٢) الضرع : الضعيف . الغمر : من لم يجرب الأمور .
(٣) المجر : الكثير .
(٤) الكلاءة : الرعاية والحفظ .
(٥) مثنى : مضاعف .

تحامَى العِدا لما اعتلَقْتُك جانبي وقال المناوى: شَبَّ عن طَوْقه عمرو[1]
يلين كلامٌ كان يَخْشُنُ منهمُ وَيَفْتُرُ نحوِى ذلك النَّظَرُ الشَّزْر[2]
فصدِّقْ ظنونًا لِى وَفِىَّ فإننى لَأَهْلُ اليدِ البيضاءِ مِنْكَ ولا فخر
ومَنْ يَكُ للدنيا وللوَفْرِ سَعْيُهُ فَتَقْرِيبُكَ الدنيا وإقبالُك الوَفْر[3]

(١) اعتلق فلاناً وبه : هويه وأحبه .
(٢) النظر الشزر : النظر الغاضب وما فيه إعراض .
(٣) الوفر : المال .

٥ ـ الرسالة الهزلية

أما بعد أيها المُصابُ بعقله ، المُوَرَّطُ بجهله . البَيِّنُ سَقَطُه[١] ، الفاحشُ غلطُه ، العاثرُ فى ذَيْل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقطُ سقوطَ الذباب على الشراب ، المتهافتُ تهافتُ الفَرَاش فى الشِّهاب[٢] ، فإن العُجْبَ أكذَبُ[٣] ، ومعرفةَ المرءِ نفسَه أَصْوَبُ . وإنك راسلتنى مُسْتَهْدِياً ، مِنْ صِلَتى ، ما صَفِرَتْ[٤] منه أيدى أمثالك ، مُتَصَدِّياً من خُلَّتِى لِمَا قُرِعَتْ دونه صنوفُ أشكالك ، مُرْسلاً خليلَتكَ مُرْتادة[٥] ، مستعملاً عشيقتَكَ قَوَّادَة ، كاذباً نفسَكَ أنك ستنزِلُ عنها إلىَّ ، وَتَخْلُفُ ، بَعْدَها ، على :

ولستَ بأَوَّلِ ذى همةٍ دَعَتْهُ لِمَا ليسَ بالنَّائل[٦]

ولا شكَّ أنَّها قَلَتْكَ إذْ لم تَضَنَّ بكَ ، وَمَلَّتْكَ إذْ لم

---

(١) سقط القول : خطؤه .

(٢) الشهاب : الشعلة من النار .

(٣) أى المعجب يكذب نفسه لأنه يتخيل فى نفسه مالا صحة له .

(٤) صفرت : خلت .

(٥) الخليلة هنا التى كان يرسلها ابن عبدوس إلى ولادة .

(٦) البيت للمتنبى والنائل : ما ينال .

تَغَرْ عليك ، فإنها أَعْذَرَتْ[١] فى السَّفارةِ لَكَ ، وما قَصَّرَتْ فى النيابة عنكَ ، زاعمةً أَن المروءة لفظٌ أَنت معناه ، والإنسانيةَ اسمٌ أَنتَ جسمُهُ وَهُيُولَاه[٢] ، قاطعةً[٣] أَنكَ انفردتَ بالجَمَالِ ، واستأْثرتَ بالكمال ، واستعليتَ فى مراتب الجَلال ، واستوليتَ على محاسنِ الخِلال ، حتى خَيَّلْتَ أَن يُوسُفَ عليه السلام حاسَنَكَ[٤] فغضضتَ منه ، وأَن امرأَة العزيز[٥] رأَتكَ فَسَلَتْ عنه ، وأَن قَارُونَ[٦] أَصابَ بعضَ ما كَنَزتَ ، والنَّطِفَ[٧] عَثَرَ على فَضْلِ مارَكَزْتَ[٨] ، وَكِسْرَى[٩] حَمَلَ غاشِيَتَكَ[١٠] ، وقَيْصَرَ[١١] رَعَى ماشِيَتَكَ ، والإسكندرَ قتلَ دَارَا[١٢] فى طاعتِكَ ، وأَرْدَشِيرَ[١٣] جاهَدَ ملوكَ

---

(١) أعذرت : أتت بما صارت به معذورة ، أى أن صاحبته بلغت الجهد فى السفارة وهى وساطتها فى الصلح .

(٢) هيولاه : مادته وحقيقته .

(٣) قاطعة : موقنة .

(٤) حاسنك : باراك فى الحسن .

(٥) امرأة العزيز مشهورة فى قصة يوسف وأنها أحبته .

(٦) قارون : من قوم موسى ، اشتهر بالكنوز والغنى .

(٧) النطف : رجل من تميم نهب أموالا لكسرى فى الجاهلية فأثرى ، فضرب به المثل بما أصاب من ثروة .

(٨) من الركز : وهو المال الدفين .

(٩) من ملوك الفرس .

(١٠) الغاشية : حديدة فوق مؤخرة الرحل .

(١١) ملك الروم .

(١٢) ملك الفرس الذى انتصر عليه الإسكندر .

(١٣) أردشير من ملوك الفرس ومثله الضحاك .

الطوائف بخروجهم عن جماعتكَ ، والضَّحَّاك استدعى مُسالمتَكَ ، وَجَذِيمةَ[١] الأَبرَش تمنَّى منادمتَك ، وَشِيرينَ[٢] قد نافستْ بُورانَ فيكَ ، وَبِلْقِيسَ[٣] غايرتْ الزَّبَّاءَ عليكَ ، وأَن مالكَ بنَ نُوَيْرَةَ[٤] إنما أَردفَ لك ، وَعُرْوَةَ[٥] بنَ جعفر إنما رَحَلَ إليكَ ، وكُلَيْبَ[٦] بنَ رَبيعةَ إنما حَمَى المَرْعَى بِعَزَّتِكَ ، وَجَسَّاساً[٧] إنما قَتَلَهُ بأَنَفَتِكَ ، وَمُهَلْهِلاً[٨] إنما طَلَبَ ثأْرَهُ بهمَّتِكَ ، والسَّمَوْءَلَ[٩] إنما وَفَى عن عهدِكَ ، والأَحنفَ[١٠] إنما احْتَبَى فى بُرْدَتكَ ، وَحَاتِماً إنما جادَ بِوَفْرِكَ ، ولَقِيَ الأَضيافَ بِبِشْرِكَ ، وَزَيْدَ[١١] بنَ مُهَلْهِلٍ إنما رَكِبَ بفخذَيْكَ ، والسُّلَيْكَ[١٢] بنَ السُّلَكَةِ إنما عَدَا على رِجْليكَ ،

---

(١) من ملوك العرب فى الجاهلية .

(٢) شيرين : زوجة كسرى ، وبوران : ابنته .

(٣) بلقيس : ملكة سبأ والزباء ملكة تدمر .

(٤) من شجعان العرب فى الجاهلية والإسلام قتل فى حروب الردة ، الرادفة أن يكون للشريف تابع يجلس عن يمينه .

(٥) كان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك .

(٦) هو رئيس الحيين من بكر وتغلب .

(٧) جساس : صهر كليب وقاتله .

(٨) مهلهل أخو كليب وصاحب ثأره ، وقد أثار بطلب هذا الثأر حرب البسوس المشهورة .

(٩) اشتهر السموءل بالوفاء فضرب به المثل .

(١٠) هو الأحنف بن قيس وقد اشتهر بحلمه .

(١١) هو زيد الخيل : من فرسان الجاهلية وقد أدرك الإسلام وأسلم .

(١٢) عداء مشهور فى الجاهلية .

وعامِرَ[١] بنَ مالِك إنما لاعَبَ الأَسِنَّةَ بيَديْكَ ، وقَيْسَ[٢] بنَ زُهَيْرٍ إنما اسْتَعَانَ بدهائكَ ، وإياس[٣] بنَ معاويةَ إنما استضاءَ بِمِصْباح ذكائكَ ، وسَحْبَانَ[٤] إنما تكلَّم بلسانك ، وعَمْرَو ابن الأَهْتَم[٥] إنما سَحَرَ ببَيَانِكَ ، وأَن الصُّلْحَ[٦] بين بَكْر وتَغْلِبَ تَمَّ برسالتكَ ، والحَمَالاَتِ[٧] بينَ عَبْسٍ وَذُبْيَانَ أُسْنِدَتْ إلى كَفَالَتِكَ وأَن احتيالَ هَرِم[٨] ، لِعَلْقَمَةَ وعامرٍ حتى رَضِيَا ، كان ذاك عن إشارتِكَ ، وجوابَهُ لِعُمَرَ[٩] ، وقد سأَلَهُ عن أَيِّهما كانَ يُنَفِّرُ ، وَقَعَ عن إرادتِكَ ، وأَنَّ الحَجَّاجَ تقلَّدَ وِلايةَ العراقِ بِجَدِّكَ ، وقُتَيْبَةَ[١٠] فَتَحَ ما وراءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ ، والمُهَلَّبَ[١١] أَوْهَنَ شَوْكَةَ الأَزارقَةِ بِأَيْدِكَ ،

(١) عامر الملقب بملاعب الأسنة من شجعان العرب فى الجاهلية .

(٢) قيس : سيد عبس ودهاتها فى حروبها .

(٣) قاضى البصرة فى أواخر العصر الأموى واشتهر بذكائه .

(٤) سحبان من بلغاء العرب مات فى عصر معاوية .

(٥) من سادات تميم وخطبائها فى الجاهلية والإسلام .

(٦) هو صلح حرب البسوس .

(٧) الحمالات : الديات .

(٨) هو هرم بن قطبة كان أحد من يحتكم إليهم العرب لرجحان عقله ، واحتكم إليه علقمة وابن عمه عامر ، وهما جميعاً من بنى عامر بن صعصعة ، فاحتال لهما حتى لا يحكم لأحدهما على الآخر فتقع حرب بين عشيرتيهما .

(٩) هو عمر بن الخطاب ، وقد سأله بعد إسلامه أيهما تنفر الآن لو احتكما إليك ؟ فقال لو قلت الآن كلمة لنشبت الحرب بين الحيين ، وتنفر : تغلب فى المنافرة .

(١٠) بطل حروب الشرق فى عهد الوليد بن عبد الملك .

(١١) المهلب : أشهر قواد الأمويين فى حروب الخوارج .

وَفَرَّقَ ذاتَ بينهمْ بِكَيْدِكَ ، وأَنَّ هِرْمِسَ[١] أَعطَى بِلِينُوسَ[٢] ما أَخَذَ مِنْكَ ، وأَفلاطونَ أَوردَ على أَرِسْطَاطَالِيسَ ما نَقَلَ عنكَ[٣] ، وَبَطْلَيْمُوسَ[٤] سَوَّى الأُصْطُرْلَابَ بتدبيرِكَ ، وَصَوَّرَ الكُرَةَ على تقديرِكَ ، وَبقْرَاطَ[٥] عَلِمَ العِلَلَ والأَمراضَ بلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ[٦] عَرَفَ طَبَائِعَ الحَشَائِشِ بدقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلاهُما قَلَّدَكَ فى العِلاج ، وسأَلكَ عن المِزاج ، واسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الأَعضاءِ ، واستشارَكَ فى الدَّاءِ والدَّوَاءِ ، وأَنكَ نَهَجْتَ لأَبى مَعْشَر[٧] طريقَ القَضَاءِ ، وأَظْهرتَ جابرَ بن حَيَّان[٨] على سِرِّ الكِيمِيَاءِ . وأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ[٩] أَصْلاً أَدْرَكَ به الحقائقَ ، وجعلتَ للكِنْدِىِّ[١٠] رَسْماً استخرجَ به الدقائقَ ، وأَنَّ صِناعةَ الأَلحانِ اختراعُكَ ، وتأْليفَ الأَوتارِ والأَنقار

---

(١) هرمس : من أنبياء الصابئة .

(٢) بلينوس : خليفة هرمس .

(٣) أفلاطون أستاذ أرسطاليس ، وهما فيلسوفان يونانيان مشهوران .

(٤) بطليموس : فيلسوف يونانى اشتهر بالفلك والهندسة والجغرافيا ، والاصطرلاب : ميزان الشمس ، وبه يعرف مقدار الساعات .

(٥) من أطباء اليونان .

(٦) عالم وطبيب يونانى .

(٧) أبو معشر : منجم عباسى مشهور ، والقضاء هنا : القدر ، وطريقاه : الخير والشر .

(٨) من أعلام العرب فى الكيمياء .

(٩) النظام : من أئمة المعتزلة وهو أستاذ الجاحظ .

(١٠) الكندى : أول فلاسفة العرب .

تولِيدُكَ وابتداعُكَ ، وأن عبد الحميدِ بنِ يَحيى[١] بَارِى أَقلامِكَ . وسهلَ بنَ هارُونَ[٢] مُدَوِّنُ كلامِكَ ، وعَمرَو بنَ بَحْرٍ[٣] مُسْتَمْلِيكَ ، ومالِكَ بنَ أَنَسٍ[٤] مُسْتَفْتِيكَ ، وأَنكَ الذى أَقامَ البراهينَ ، وَوَضَعَ القوانين ، وحَدَّ الماهِيَّةَ[٥] وبيَّنَ الكيفيَّةَ والكميَّةَ ، وناظَرَ فى الجَوْهرِ والعَرَضِ ، ومَيزَ الصِّحَّةَ من المرضِ ، وفَكَّ المُعَمَّى[٦] ، وفَصَلَ بين الاسم والمُسَمَّى ، وضَرَبَ وقَسَّمَ ، وعَدَّلَ وقَوَّمَ ، وَصنَّفَ الأَسماءَ والأَفعالَ ، وبوَّبَ الظَّرْفَ والحَالَ ، وَبَنَى وأَعْرَبَ ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ ، وَثَنَّى وَجَمَعَ ، وأَظْهَرَ وأَضْمَرَ ، واستفْهَمَ وَأَخْبَرَ ، وأَهملَ وقيَّدَ ، وأَرْسَلَ وأَسْنَدَ[٧] ، وبحثَ ونَظَرَ ، وتصفَّحَ الأَدْيانَ ، وَرَجَّحَ بينَ مَذْهَبَىْ مَانِى وَغَيْلَانَ[٨] ، وأَشارَ

---

(١) عبد الحميد : كاتب مروان بن محمد وهو أبلغ الكتاب المتقدمين .

(٢) سهل بن هرون : بليغ مشهور وهو أستاذ الجاحظ .

(٣) هو الجاحظ .

(٤) هو مالك صاحب المذهب المشهور الذى دانت به الأندلس وبلاد المغرب .

(٥) يريد أنه حد الحدود والتعريفات ، وهو تحكم واضح .

(٦) المعمى : الملغز من اللغز .

(٧) إشارة إلى المسند فى الحديث ، والمرسل وهو ما لم يذكر فيه أول السند .

(٨) مانى : صاحب نحلة دينية عند الفرس تسمى المانوية ، وكان ذلك قبل الإسلام ، وهو يقول بأن هناك إلهين : إله النور وإله الظلام . وغيلان أول من تكلم فى القدر بين المسلمين فى العصر الأموى وهو دمشق .

بِذَبْحِ الجَعْدِ[١] ، وقَتْلِ بَشَّارِ بنِ بُرْدٍ ، وأَنَّكَ لو شئتَ خَرَقْتَ العاداتِ ، وخالفتَ المعهوداتِ ، فَأَحَلْتَ البِحَارَ عَذْبَةً ، وأَعَدْتَ السِّلاَمَ[٢] رَطْبَةً ، ونَقَلْتَ غَدًا فصار أَمْساً ، وَزِدْتَ فى العناصرِ فكانتْ خَمْساً ، وأَنَّكَ المَقُولُ فيهِ : كلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفَرَا[٣] ، وَ :

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يجْمَعَ العالَمَ فى واحِدِ[٤]

والمَعْنِيُّ بقول أَبى تمام :

فلوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لم تَزِدْها عَلَى ما فيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّباعِ

والمُرَادُ بقولِ أَبى الطَّيِّب :

ذُكِرَ الأَنامُ لنا فكانَ قَصِيدةً كُنْتَ البديعَ الفَرْدَ مِنْ أَبياتِها

فَكَدَمْتَ فى غيرِ مَكْدَمٍ[٥] ، واسْتَسْمَنْتَ ذا وَرَمٍ ، وَنَفَخْتَ فى غيرِ ضَرَمٍ[٦] ، ولم تَجِدْ لِرُمْحٍ مَهزًّا ، ولا لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا[٧] ، بلْ رَضِيتَ من الغَنِيمَةِ بالإِيَابِ[٨] ، وتَمَنَّيْتُ الرجوعَ بخُفَّىْ

---

(١) الجعد : مولى لبنى الحكم ، تكلم فى القدر وغيره ، وتجاوز الحدود فقتله خالد القسرى فى العراق فى أثناء ولايته هناك .

(٢) السلام : الحجارة الصلبة .

(٣) مثل يضرب فى الشىء الذى يزيد غيره ويفضله .

(٤) هذا البيت لأبى نواس من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد .

(٥) عضضت فى غير موضع للعض ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب شيئاً يعجز عنه .

(٦) نفخت فى غير ضرم : أى نفخت فى رماد لا فى نار .

(٧) المحز : مكان الحز أى القطع .

(٨) مثل يضرب لمن قنع بسلامة نفسه فى مطلبه .

حُنَيْن[١] ، لأَنى قلتُ : « لقدْ هَانَ مَنْ بالتْ عليهِ الثَّعَالِبُ[٢] وأَنشدتُ :

على أَنها الأَيامُ قد صِرْنَ كُلُّهَا عجائبَ حتى ليسَ فِيهاعَجَائبُ[٣]

وَنَخَرْتُ[٤] وبَسَرْتُ[٥] ، وَعَبَسْتُ[٦] وَكَفَرْتُ. وأَبْدَأتُ وأَعَدْتُ[٧] ، وأَبْرَقْتُ وأَرْعَدْتُ[٨] ، « وَهَمَمْتُ[٩] ولم أَفعلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِى » ، ولولا أَنَّ للجوارِ ذِمةً ، وللضِّيافةِ حُرْمةً ، لكانَ الجوابُ فى قَذَالِ الدُّمُسْتُقِ[١٠] ، والنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ العَقْرَبُ ، والعقوبةُ ممكنةٌ إِن أَصَرَّ المُذْنِبُ .

وَهَبْها لم تُلاَحظْكَ بِعَيْن كَلِيلَةٍ عن عيوبكَ ، مِلْؤُها حَبِيبها ، حَسَنٌ فيها مَنْ تَوَدُّ ، وكانت أَنْ حَلَّتْكَ بِحُلاكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِماكَ ، ولم تُعِرْكَ شَهادةً ، ولا تَكَلَّفَتْ لكَ زيادةً ،

---

(١) مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة .

(٢) شطر بيت هو : « أرب يبول الثعلبان برأسه — لقد هان من بالت عليه الثعالب » قاله رجل من بنى سليم كان يعبد صنماً ، فرأى يوماً ثعلباً يبول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى الرسول وأسلم .

(٣) البيت من قصيدة فى الرثاء لأبى تمام .

(٤) نخرت : من النخير وهو صوت الأنف عند الغضب .

(٥) بسر : غضب .

(٦) عبس : أظهر العبوس والغضب .

(٧) أبدأت وأعدت : كررت كلاماً يسوءك .

(٨) يقال أبرق وأرعد إذا هدد .

(٩) همت بشىء خطير كالقتل ونحو ذلك .

(١٠) الدمستق : من قواد الروم هزمه سيف الدولة ، والقذال : القفا .

بل صَدَقتْ سِنَّ بِكْرِها فيما ذَكَرَتْهُ عنكَ[١] ، وَوَضَعَتْ الهِنَاءَ مَواضِعَ النَّقْبِ[٢] بما نَسَبتْهُ إليكَ ، ولم تَكُنْ كاذبةً فيما أَثنَتْ به عليك ، فالمُعِيدِىُّ تسمع به خيرٌ من أَنْ تراه :

هجينُ القَذالِ[٣] ،أَرْعَنُ السِّبَالِ[٤] ،طويلُ العُنُقِ والعِلاوَةِ[٥] ، مُفْرِطُ الحمْقِ والغَباوةِ ، جافى الطبع ، سَيِّئُ الجَابَةِ والسمع[٦] ، بغيضُ الهيئةِ ، سخيفُ الذهابِ والجَيْئَةِ ، ظاهرُ الوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الأَنفاسِ ، كثيرُ المعايبِ ، مشهورُ المثالبِ ، كلامُكَ تمتمةٌ[٧] ، وحديثكَ غمغمةٌ[٨] ، وبيانُك فهفهةٌ[٩] وضِحْكُكَ قهقهةٌ ، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وغِنَاكَ مسأَلةٌ[١٠] ، ودينكَ زندقةٌ ، وعِلْمكَ مَخْرَقَةٌ[١١] :

مَسَاو لَوْ قُسِمْنَ على الغوانى لَمَا أُمْهِرْنَ إلاَّ بالطَّلاَقِ[١٢]

---

(١) يقال صدقت سن بكرها : أى لم تقل إلا صدقاً .
(٢) مثل يضرب لمن يضع الأمر فى موضعه ، والهناء : القطران ، والنقب مبادئ الجرب فى البعير . . .
(٣) كناية عن خسة الأصل .
(٤) السبال : الشنب ، يريد أنه أحمق .
(٥) العلاوة : الرأس ، وطول العنق والرأس عند العرب دليل الحماقة .
(٦) الجابة : الإجابة .
(٧) التردد فى التاء .
(٨) الغمغمة : أن يسمع الصوت ولا تتبين الكلمات والحروف .
(٩) عى عن النطق بترديد الفاء .
(١٠) يريد أن ماله من سؤال الناس .
(١١) مخرقة : من الخرق وهو الحمق .
(١٢) البيت لأبى تمام من قصيدة فى الهجاء .

حتى إنَّ باقِلاً[١] موصوفٌ بالبلاغةِ إذا قُرنَ بكَ ، وَهَبَنَّقَةَ[٢] مُسْتَوْجِبٌ لاسْم العقلِ إذا أُضيفَ إليكَ ، وَطُوَيْساً[٣] مأْثورٌ عنه يُمْنُ الطائرِ إذا قِيسَ عليكَ ، فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، والاغتباطُ بك نَدَمٌ ، والخيبةُ منكَ ظَفَرٌ ، والجنَّةُ معك سَقَرٌ[٤]. كيفَ رأَيتَ لؤمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً[٥] ، وَضَعَتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ؟ وأَنَّى جَهِلْتَ أَنَّ الأَشياءَ إنما تَنْجَذِبُ إلى أَشْكالِهَا ، والطَّيرَ إنما تَقَعُ على أُلاَّفِها ؟ وهَلاَّ علمت أَنَّ الشرقَ والغربَ لا يَجتمعانِ . وشعرتَ أَن المؤمنَ والكافرَ لا يتقاربانِ ، وقلتَ : الخبيثُ والطَّيِّبُ لا يَسْتَوِيَانِ[٦]. وتمثَّلْتَ :

أَيها المُنْكِحُ الثريَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يَلْتقيانِ[٧]؟

وذكرتَ أَنى عِلْقٌ[٨] لا يباعُ ممَّنْ زَادَ ، وطائرٌ لا يَصِيدُهُ مَنْ أَرادَ ، وغَرَضٌ لا يُصِيبُه إلاَّ مَنْ أَجادَ ؟ ما أَحْسَبُكَ إلاَّ

---

(١) باقل : يضرب به المثل فى العى .

(٢) هبنقة : يضرب به المثل فى الخبل وضعف العقل .

(٣) مغن بالمدينة فى العصر الأموى كانوا يتشاءمون منه .

(٤) سقر : جهنم .

(٥) كفاء : مكافئاً ومناظراً .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : « لا يستوى الخبيث والطيب » .

(٧) البيت لعمر بن أبى ربيعة قاله حين تزوجت الثريا سهيل بن عمر بن عبد العزيز .

(٨) العلق : النفيس .

قد تَهَيَّأْتَ للتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ للتَرْفِيَةِ[١]! ولولا أَنَّ جُرْحَ العَجْماءِ جُبَارٌ[٢] ، للقيتَ من الكواعبِ ما لاقى يَسَارٌ[٣] ، فما هَمَّ إلا ببعضِ ما هَمَمْتُ بِهِ ، ولا تعرَّضَ إلا لأَيسرِ ما تَعَرَّضتَ له ، أَيْنَ ادعاؤك رِوايةَ الأَشعارِ وتعاطيكَ حفظَ السِّيرِ والأَخبارِ ، أَما ثابَ إليكَ قولُ الشاعرِ :

بَنُو دَارِمٍ أَكْفاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وتَعْقِدُ فى أَكفائها الحَبِطاتُ[٤]

وهلاَّ عَشَّيْتَ[٥] ولم تَغْتَرَّ ، وما أَشكُّ أَنكَ تكونُ وافدَ البَراجِمِ[٦] أَو تَرْجعُ بصحيفةِ المُتَلَمِّسِ[٧] ، وهل عَضَلَنى[٨] هُمَام بنُ مُرَّةَ فأَقول : زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ من قعودٍ .

ولعمرى لو بلغتُ هذا المبلغَ لارتفعتُ عن هذه الحِطَّة ،

---

(١) الترفية : الرفاهية .

(٢) حديث للرسول صلى الله عليه وسلم ، والعجماء : البهيمة ، والجبار : الدم الهدر ، والمعنى أن البهيمة إذا جرحت لا دية لها ولا قصاص ، ويريد ابن زيدون أن يسهين بابن عبدوس .

(٣) يسار : عبد دميم آذنة مولاته حين توهم أنها تحبه .

(٤) البيت للفرزدق ، وهو فى هجاء حى الحبطات ، والمعنى أن بنى دارم يصهرون إلى بنى مسمع ، أما الحبطات فيصهرون إلى من يشابههم فى الخسة .

(٥) عشيت : رفقت .

(٦) وافد البراجم : رجل من تميم أحرقه عمرو بن هند ، والبراجم خمسة من أولاد حنظلة ، والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى تميم لثأر له عندهم ، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مر رجل اسمه عمار فاشتم رائحة القتار فظن أن الملك اتخذ طعاماً فعدل إليه فقيل له : من أنت ، فقال : أنا وافد البراجم ، فألقى فى النار .

(٧) المتلمس : شاعر جاهلى وقصته معروفة مع عمرو بن هند ملك الحيرة .

(٨) عضل المرأة : منعها من الزواج ، وكان همام بن مرة قد منع بناته الأربع من الزواج وخرجن على رغبته فضرب به وبهن المثل .

ولا رَضِيتُ بهذه الخطة ، فالنارُ ولا العارُ ، والمنيةُ ولا الدنيَّةُ ، والحرَّةُ تجوعُ ولا تَأْكلُ بِثَدْيَيْها[١] :

فكيف وفى أبناء قَومِىَ مَنْكَحٌ وفتيانُ هزَّانَ الطِّوالُ الغرانِقَهْ[٢]

وما كنتُ لأَتخطَّى المِسْكَ إلى الرَّمادِ ، ولا أَمتطىَ الثَّوْرَ بعدَ الجوادِ ، فإنما يَتَيَمَّمُ مَنْ لم يجدْ ماءً ، ويرعَى الهشيمَ[٣] ، مَنْ عَدِمَ الجَمِيمَ[٤] ، ويَرْكَبُ الصَّعْبَ[٥] مَنْ لا ذَلُولَ له . ولعلَّكَ إنما غَرَّكَ مَنْ عَلمْتَ صبوتى إليه ، وشَهِدْتَ مساعفتى له ، مِنْ أَقمارِ العصر، ورياحينِ المِصْر ، الذين همُ الكواكب عُلُوَّ هِمَمٍ ، والرياضُ طِيبَ شِيم :

مَنْ تَلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهُم مثلَ النجوم التى يَسْرِى بها السارى[٦]

تَحِنُّ قِدْحٌ ليسَ منها[٧] ، ما أَنتَ وَهُمْ؟ وأَنَّى تقعُ منهم ؟ وهل أَنتَ إلا واوُ عمْرٍو فيهم ، وكالوَشِيظَةِ[٨] فى العَظْم بَيْنَهم .

---

(١) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الأحدوثة .

(٢) اسم قبيلة ، والغرانقة الشباب ، والبيت للأعشى .

(٣) الهشيم : النبت اليابس .

(٤) الجميم : النبت الرطب .

(٥) الصعب : الذى لا يطيع فهو ضد الذلول .

(٦) البيت لشاعر يسمى العرندس .

(٧) مثل يضرب لمن يتشبه بقوم ليس منهم ، والقدح : أحد قداح الميسر .

(٨) الوشيظة : النتوء فى العظم .

وإن كنتَ إنما بلغتَ قَعْرَ تابوتكَ[١] وتجافيتَ عن بعضِ قُوتكَ . وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ[٢] ، وجررتَ هِمْيانَكَ[٣] ، واخْتَلْتَ فِى مشيتكَ ، وحذفتَ فضولَ لحيَتكَ ، وأَصلحتَ شارِبَكَ ، ومَطَطْتَ حاجِبَكَ وَرَقَقْتَ خَطَّ عذارِكَ[٤] ، واستأْنَفْتَ عَقْدَ إزارِكَ[٥] ، رجاءَ الاكتنان فيهم ، وَطَمَعًا فى الاعتداد منهم ، فظننتَ عجزًا ، وأخطأْتَ الغرض . واللهِ لو كساكَ مُحَرِّقُ البُرْدَيْنِ[٦] ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ[٧] بالقُرْطَيْن ، وَقَلَّدَكَ عمرٌو[٨] الصَّمْصَامَةَ ، وحَمَلَكَ الحارِثُ[٩] على النَّعَامَة ، ما شككت فيكَ ، ولا سَتَرْتَ أَباكَ[١٠] ، ولا كنتَ إلا ذاك . وَهَبْكَ سامَيْتَهم فى ذِرْوَة المجد والحَسب ، وجاريتَهم فى

---

(١) كناية عن لزوم المنزل ، وقوله : وتجافيت عن بعض قوتك : أى أظهرت الكرم بما تستفضله من قوتك .

(٢) الأردان : الأكمام .

(٣) الهميان هنا : السروال .

(٤) العذار : ما تنبت على الخد من الشعر .

(٥) كناية عن التجمل فى الثياب .

(٦) محرق : هو عمرو بن هند ملك الحيرة ، لقب بذلك لتحريقه مائة من العرب ، ويقال إن وفود العرب كانت عنده ، فأخرج بردين وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما .

(٧) بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالشام اشتهرت بقرطين أهدتهما إلى الكعبة .

(٨) هو عمرو بن معديكرب الزبيدى اشتهر بسيفه الصمصامة وأدرك الإسلام وأسلم وأبلى فى الفتوح .

(٩) النعامة : فرس الحارث بن عباد البكرى سيد وائل فى الجاهلية .

(١٠) ولا سترت أباك : أى لم تخف على شأنك ونسبك .

غاية الظَّرْف والأَدب ، أَلستَ تأْوى إلى بيت قَعيدَتُهُ لكاعِ[١] إذ كلُّهم عَزَبٌ خالى الذراع[٢] وأَينَ مَنْ أَنفَرِدُ به ممن لا أُغْلَبُ إلَّا على الأَقَلِّ الأَخَسِّ منه[٣] ، وهل يجتمعُ لى فيكَ إلا الحَشَفُ وسوءُ الكيلَة[٤] ، ويقترنُ علىَّ بكَ إلا الغُدَّةُ والموتُ فى بيتٍ سَلُولِيَّة[٥] :

تعالَى اللهُ يا سَلْمَ بن عمرٍو أَذلَّ الحرْصُ أَعناقَ الرجال[٦]

ما كان أَخْلَقَكَ بأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ[٧] ، وتَرْبَعَ بذلك على ظَلْعِكَ[٨] ، ولا تَكُنْ بَرَاقِشَ[٩] الدالَّةَ على أَهْلِها ، وعَنْزَ السوءِ المستثيرةَ لِحتْفها ، فما أَراك إلا سَقَطَ بك العشاءُ على سِرْحان[١٠] ، وَبِكَ لا بظَبْيٍ أَعْفَرَ[١١] ، قدْ أَعذَرْتُ إنْ أَغْنَيْتُ شَيئًا ، وأَسمعتُ لو ناديتُ حَيًّا :

---

(١) القعيدة : الزوجة . واللكاع : اللئيمة .

(٢) خالى الذراع : لا يملك شيئاً كما يقال خالى اليد وهو كناية عن خلو اليد عن الزوجة .

(٣) المعنى : كيف أوازن بين زوج أنفرد به ، وآخر لا أنال منه إذ فضلة غيرى من الزوجات ؟

(٤) مثل يضرب فى الخلتين السيئتين تجتمعان ، والحشف : أردأ التمر .

(٥) امرأة من بنى سلول . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عامر بن الطفيل ، فظهر فى رقبته غدة ، ومات فى بيت سلولية (من بنى سلول) فقال : غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية .

(٦) البيت لأبى العتاهية .

(٧) تقدر بذرعك : تقيس الأمر بجهدك .

(٨) مثل يضرب لمن يكلف نفسه ما لا يقدر عليه . وتربع : تقيم ، والظلع : العرج فى البعير .

(٩) يشير إلى المثل : جنت على أهلها براقش ، وهى كلبة غزا أهلها قوم ، فلم يعرفوهم حتى نبحت ، فكانت شؤماً عليهم .

(١٠) السرحان : الذئب .

(١١) مثل يضرب للشاتة ، والأعفر : الذى لونه لون العفار أى التراب .

إن العصا قُرِعَتْ لذى الحِلْمِ[١] والشيءُ تَحْقِرُهُ وقدْ يَنْمِى[٢]

وإن بادرْتَ بالنَّدامة ، ورَجَعْتَ على نفسِكَ باللامةِ ، كنتَ قد اشريتَ العافية لكَ بالعافيةِ منكَ ، وإن قلتَ : جعجعةٌ ولا طِحْنٌ[٣] ، ورُبَّ صَلَفٍ تحتَ الرَّاعِدَةِ[٤] ،وأنشدتَ :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخَدَّرَةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وإن جَرَحَا[٥]

فَعُدْتَ لما نُهِيتَ عنه ، وراجعتَ ما اسْتَعْفَيْتَ منه ، بَعَثْتُ مَنْ يزعِجُكَ إلى الخضراءِ[٦] دَفْعًا ، ويَستحفُّكَ نحوها وَكْزًا[٧]وصَفْعًا ، فإذا صرتَ إليها عَبِثَ أكَّارُوها بكَ[٨] ، وتَسَلَّطَ نواطِيرُها[٩] عليكَ ، ذلك بما قَدَّمَتْ يَداكَ ، لِتَذُوقَ وبالَ أَمْرِكَ ، وتَرَى مِيزانَ قَدْرِكَ :

فمَنْ جَهِلَتْ نفسُهُ قَدْرَهُ رأَى غيرُهُ مِنْهُ مَا لاَ يَرَى

---

(١) مثل للتحذير .

(٢) مثل للتحذير أيضاً والبيت للحارث بن وعلة اليشكرى .

(٣) مثل لمن يتوعد ولا يفعل ، والطحن : الطحين .

(٤) الصلف : قلة الخير ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير الرعد . وهو مثل يضرب لمن يتوعد من غير أن يفعل .

(٥) البيت لبشار بن برد .

(٦) الخضراء : الناحية المزروعة من البلد .

(٧) الوكز : ضرب الظهر مع الدفع .

(٨) الأكارون : الفلاحون .

(٩) النواطير : جمع ناطور وهو البستانى .

٦ ـ الرسالة الجدِّية

يا مَوْلاىَ وسَيِّدِى الذى وِدادِى له ، واعتدادى به ، واعتمادى عليه ، أَبقاكَ الله ماضىَ حَدِّ العزم ، وارىَ زَنْدِ الأَمل[١] ، ثابتَ عهدِ النعمة . إنْ سَلَبْتَنى ـ أَعزَّكَ اللهُ ـ لِباسَ نعمائكَ ، وَعَطَّلْتَنى من حُلَى إيناسِكَ ، وأَظمأْتَنى إلى بَرُود إسعافك ، ونَفَضْتَ بى كفَّ حِياطَتِكَ ، وغضضتَ عنى طرَف حمايتكَ ، بعد أَن نَظَرَ الأَعمى إلى تأْميلى لكَ ، وسمِعَ الأَصَمُّ ثنائى عليكَ ، وأَحسَّ الجمادُ باستنادى إليكَ ، فلا غَرْوَ قَدْ يَغَصُّ بالماءِ شارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدواءُ المُسْتَشْفِىَ بِهِ . ويؤْتى الحذِرُ من مأْمنهِ ، وتكونَ مَنيَّةُ المتمنِّى فى أُمْنِيَّتِهِ ، والحَيْنُ قد يَسْبِقُ جُهْدَ الحريص :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى ... وتَهُونُ غَيْرَ شماتةِ الحُسَّادِ

وإنى لأَتَجَلَّدُ وأُرِى الشَّامِتِينَ أَنى لِرَيْبِ الدهر لا أَتَضَعْضَعُ ، فأَقول : هل أَنا إلا يَدٌ أَدْماها سِوارُها ، وجبين عَضَّهُ إكليلُهُ[٢] ، ومشرفىٌّ[٣] أَلْصَقَهُ بالأَرض صاقِلُهُ ، وسمهرىٌّ[٤]

---

(١) ورى الزند : أخرج منه النار واقتدحه .
(٢) الإكليل : التاج .
(٣) المشرفى : السيف .
(٤) السمهرى : الرمح .

عرَضَهُ على النارِ مُثَقِّفُهُ[١]، وَعَبْدٌ ذَهَبَ به سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الذى يقول[٢]:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِمًا فليَقْسُ أَحيانًا على مَنْ يَرْحَمُ

هذا العَتْبُ محمودٌ عَواقبُهُ ، وهذه النَّبْوةُ غَمْرَةٌ ثم تَنْجَلِى[٣]، وهذه النَّكْسةُ سحابةُ صَيْفٍ عن قليل تَقَشَّعُ ، ولن يَرِيبَنِى مِنْ سَيِّدِى أَنْ أَبْطَأَ سيْبُهُ[٤]، أَو تأَخَّرَ - غيرَ ضَنِينٍ - غَنَاؤُه[٥]، فأَبْطَأُ الدِّلاءِ فَيْضًا أَملؤُها ، وأَثقلُ السحائب مَشْيًا أَحفَلُها ، وأَلَذُّ السرابِ ما أَصابَ غليلًا[٦] ومع اليوم غَدٌ ، ولكلِّ أَجَل كتابٌ ، له الحمْد على اهْتِبَالِه[٧] ولا عَتْبَ عليه فى إغفاله :

فإِنْ يكُن الفِعلُ الذى ساءَ واحدًا فأَفعالهُ اللائِى سَرَرْنَ أُلُوف

وأَعودُ فأَقول : ليتَ شعْرِى ما هذا الذنبُ الذى لم يَسَعْهُ عَفْوُكَ ، والجهلُ[٨] الذى لم يأْتِ من وَرائِهِ حِلْمُكَ ،

---

(١) مثقفه : صانعه وصاقلة .

(٢) هو أبو تمام .

(٣) النبوة : الجفوة . والغمرة : الشدة ، وهو مثل يضرب لليسر بعد العسر .

(٤) السيب : العطاء .

(٥) الغناء : المال والنفع .

(٦) الغليل : شدة العطش .

(٧) الاهتبال : الاهتمام وإتاحة الفرصة .

(٨) الجهل : الحمق .

والتَّطَاوُلُ[١] الذى لم يستغرِقْهُ تطوُّلُكَ[٢] ، والتحاملُ الذى لم يَفِ به احتمالُكَ ، ولا أَخلُو من أَن أكونَ بريئًا فَأَينَ العدلُ ؟ أَو مُسيئًا فأَين الفضلُ ؟ :

إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ واسعٌ أَوكانَ لى ذنبٌ ففضلُكَ أَوسع

حَنَانَيْكَ[٣]! قد بَلَغَ السيلُ الزُّبَى[٤] ، ونالنى ما حسبى بِه وكَفَى، وما أُرانى إلا لو أُمِرْتُ بالسجودِ لآدَمَ[٥] فأَبيْتُ واستكبرتُ ، وقال لى نُوحٌ : ارْكَبْ مَعَنا[٦]فقلت « سَآوِى إلى جَبَل يَعْصِمُنى منَ الماءِ » ، وأُمِرْتُ ببناءِ الصَّرْح[٧]لعلِّى أَطَّلعُ إلى إلَه موسَى ، وعكفتُ على العِجْل[٨] ، واعتدَيْتُ فى السَّبْتِ[٩] ، وتعاطيتُ فعَقَرْتُ[١٠] ، وشَرِبْتُ من النهر الذى

---

(١) التطاول : الاستعلاء .

(٢) التطول : الفضل .

(٣) حنانيك : رحمتك .

(٤) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة فى المكان المرتفع ، وهو مثل يضرب حين يتفاقم الأمر .

(٥) يشير إلى استكبار إبليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ، وفى ذلك قال تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٦) يتمثل بقصة نوح حين فاض الطوفان فقال لابنه اركب معنا فعصاه فقال كما فى القرآن الكريم : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء » فغرق .

(٧) يشير إلى قصة فرعون وأنه أمر هامان أن يبنى له صرحاً أى قصراً عالياً لعله يرى إله موسى .

(٨) يشير إلى قصة العجل الذى عبده بنو إسرائيل حين تأخر عليهم موسى .

(٩) يشير إلى قصة بنى إسرائيل حين نهاهم عن الصيد يوم السبت فخالفوا ما نهو عنه فحق بهم العذاب .

(١٠) يشير إلى ناقة صالح وذنب من عقرها، وإلى الآية الكريمة : « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » .

ابتلىَ به جيوشُ طالوتَ[١] ،وقُدْتُ الفيلَ لأَبْرَهَةَ[٢] ،وعاهدتُ قريشًا على ما فى الصحيفة[٣] ، وتأَوَّلْتُ فى بيعةِ العقبةِ[٤] ، وانخذلتُ بِثُلْثِ الناسِ يومَ أُحُدٍ[٥] ، وَتَخَلَّفْتُ عن الصلاة فى بنى قُرَيْظَةَ[٦] ، وجئتُ بالإِفْكِ[٧] على عائشةَ الصدِّيقةِ ، وأَنِفْتُ مِنْ إمارَةِ أُسامَةَ[٨] ، وزعمت أَنَّ بيعة أَبى بكر كانت فلتةً[٩] ، وَرَوَّيْتُ رُمْحِى من كتيبةِ خالد[١٠] ، ومَزَّقْتُ الأَديمَ[١١] الذى

---

(١) كان طالوت قد حرم على قومه الشرب من نهر ، فخالفوه ووقعوا فى الإثم .

(٢) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشى وخروجه فى جيش لهدم الكعبة .

(٣) هى الصحيفة التى كتبها قريش وتعاهدت فيها على مقاطعة الرسول .

(٤) بيعة العقبة بيعة مشهورة بين الرسول وأصحابه ، وقد يفهم من كلامه أن بعض الصحابة قد تأول فيها أى خالف الإجماع ، وهو ما لم يحدث مطلقاً .

(٥) يشير إلى واقعة أحد حين انخذل عن رسول الله ابن سلول ومن معه من المنافقين ، ورجعوا بنحو ثلث الجيش .

(٦) بنو قريظة : طائفة من اليهود ، وقد أمر النبى أصحابه بعد غزوة الخندق أن يصلوا العصر فى بنى قريظة يعنى بذلك أن يسرعوا فى الذهاب إليهم ، على أن من تخلف لم يعتبر هذا ذنباً له !

(٧) قصة الإفك والكذب على السيدة عائشة رضى الله عنها مشهورة .

(٨) يشير إلى ما يروى من أن بعض الصحابة غضب حين ولى رسول الله عليهم أسامة بن حارثة .

(٩) قال عمر : كانت بيعة أبى بكر فلتة ، ولم يرد بقوله سوءاً بأبى بكر ، فمن الخطأ أن يتمثل فى الذنوب بهذه العبارة ، والشيعة يرون أن على بن أبى طالب كان أجدر بالخلافة من أبى بكر وعمر ولعله يشير إلى هذا الرأى .

(١٠) يشير إلى من حاربوا خالداً فى أيام الردة .

(١١) يشير إلى أديم عمر الذى مزقه أبو لؤلؤة حين قتله وإلى قول الشاعر فى رثائه :

جزى الله خيراً من أمام وباركت ... يد الله فى ذاك الأديم الممزق

بارَكَتْ يَدُ اللهِ عليه ، وضحَّيتُ بالأَشمط.[١] ، الذى عُنوانُ السجودِ بهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَام[٢] :

ثلاثةَ آلافٍ وعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرْبَ عَلِيٍّ بالحُسام المُسَمَّم

وكتبتُ إلى عُمَرَ بنِ سَعْدٍ[٣] : أَن جَعْجع[٤] بالحُسَيْنِ ، وتمثلت عندما بَلَغَنى من وقعة الحَرَّة[٥] :

ليت أَشياخى ببدرٍ علموا جَزَعَ الخزرج من وَقْع الأَسَلْ

ورَجَمتُ الكعبةَ ، وصلبتُ العائذَ[٦] على الثَّنِيَّةِ — لكانَ[٧] فيما جَرَى على ما يُحْتَمَلُ أَن يَسمَّى نَكالا . ويُدعَى ولو على المجاز عِقابًا :

وَحَسْبُكَ من حادث بامرئٍ تَرَى حاسدِيهِ لهُ رَاجمينَا

فكيفَ ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أَهداها كاشحٌ[٨] ، ونبأٌ جاءَ به

---

(١) الأشمط عثمان وفيه يقول حسان :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

(٢) قطام : صاحبة ابن ملجم قاتل على بن أبى طالب .

(٣) يشير إلى قتل الحسين .

(٤) جعجع : ضيق الخناق .

(٥) المتمثل يزيد بن معاوية ، تمثل بهذا البيت لابن الزبعرى الذى نظمه فى واقعة أحد وذلك حين علم يزيد بهزيمة جيوشه لأهل المدينة الخارجين عليه .

(٦) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وقتله للعائذ بها ، وهو عبد الله بن الزبير ، على الثنية وهى طريق الكعبة .

(٧) جواب « لو » المذكورة فى الجملة السابقة « لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت » .

(٨) كاشح : عدو ، ومن هنا أخذ يبرئ نفسه من التهمة التى دسها عليه النمامون كذباً .

فاسقٌ . وَهُمُ الهمَّازُونَ [١] المَشَّاؤُونَ [٢] بِنَمِيم ، والواشونَ الذين لا يلبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا العَصَا [٣] ، والغواةُ الذين لا يترُكُونَ أَديمًا [٤] صحيحًا ، والسعاةُ الذينَ ذَكَرَهُم الأَحنفُ بنُ قَيْسٍ فقال : ما ظَنُّكَ بقومٍ الصدقُ محمودٌ إِلَّا منهم :

حَلَفْتُ فلم أَترُكْ لنفسِكَ رِيبَةً وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ [٥]

واللهِ ما غَشَشْتُكَ بعدَ النصيحة ، ولا انحرفتُ عنك بعدَ الصَّاغِيَةِ [٦] ، ولا نصبتُ [٧] لك بعدَ التشيُّع فيكَ ، ولا أَزمعتُ [٨] يأْسًا منكَ مع ضمانٍ تَكفَّلْتَ به الثقةُ عنكَ ، وعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظنِّ عليكَ . ففيمَ عَبِثَ الجفاءُ بأَذِمَّتِي [٩] ، وعاثَ العُقُوقُ فى مَوَدَّتى [١٠] ، وتَمكَّنَ الضَّيَاعُ من وسائِلى؟ ولِمَ ضاقتْ مذاهبى ، وأَكْدَتْ [١١] مطالبى ؟ وعلامَ رَضِيتُ من المَرْكَبِ

---

(١) الهمازون : من الهمز وهو الغيبة .
(٢) المشاؤون : الساعون بالنميمة .
(٣) كناية عن التفريق .
(٤) الأديم أى الجلد ، كناية عن الشخص كله .
(٥) البيت للنابغة .
(٦) الصاغية : الأذن ، وهى هنا كناية عن خاصة الشخص الذين يصغون اليه ويغشون مجلسه .
(٧) نصب : عادى .
(٨) أزمع : أقدم .
(٩) الأذمة : الحرمات جمع ذمام .
(١٠) العقوق : كفران النعمة .
(١١) أكدت : بخلت .

بالتَّعْلِيقِ ، بل من الغنيمةِ بالإِيابِ[١] ، وأَنَّى غَلَبنى المُغَلَّب[٢] وَفَخَرَ علىَّ العاجزُ الضعيفُ ، ولطمتْنى غيرُ ذاتِ سِوَار[٣]؟ ومالَكَ لم تَمْنَعْ من قبلِ أَن أُفْتَرَس ، وتُدرِكْنى ولما أُمزَّقْ . أَم كيفَ[٤] لا تَتَضَرَّمُ جوانحُ الأَكْفاءِ[٥] حَسَدًا لى على الخُصُوصِ بكَ ، وتتقطَّعُ أَنفاسُ النُّظَراءِ منافسةً فى الكرامةِ عليكَ ، فكيفَ وقد زانَنى قديمُ خِدْمتكَ ، وزهانى وسْمُ نعمَتِكَ ، وأَبليتُ البلاءَ الجميلَ فى سِماطِكَ[٦] ، وقمتُ المَقَامَ المحمود على بساطِكَ ؟

أَلستُ المُوالى فيكَ غرَّ قصائدٍ هى الأَنجمُ اقتادتْ من الليل أَنجُمَا
ثَناءٌ يُظَنُّ الروضُ منه مُنَوَّرًا ضُحًى ويُخَالُ الوشْىُ فيه مُنَمْنَمَا

وهل لَبِسَ الصباحُ إلا بُردًا طَرَّزْتُهُ بفضائلكَ ، وتقلَّدتِ الجوزاءُ إلا عِقدًا فَصَّلْتُه بمآثرِكَ ، واسْتَمْلى الربيعُ إلا ثناءً مَلأْتُهُ بمحاسنِكَ ، وبَثَّ المِسْكُ إلَّا حديثًا أَذعْتُهُ فى محامِدِك؟

---

(١) يشير إلى قول امرئ القيس :
لقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

(٢) المغلب : الضعيف .

(٣) فى المثل لو ذات سوار لطمتنى . أى اللاطم ضعيف .

(٤) انتقل ابن زيدون إلى بيان إخلاصه للممدوح وكيف كان من مداحه وخاصته .

(٥) الأكفاء : النظراء .

(٦) السماط : الصف .

ما يومُ حليمةَ بسِرٍّ[١] ، وإن كنتُ لم أَكْسُكَ سَليبًا ، ولا حَلَّيْتُكَ عُطْلًا ، ولا وسمتُكَ غُفلًا ، بل وجدت آجُرًّا وجِصًّا فبنيتُ ، ومكانَ القولِ ذا سَعَة فقلتُ . حاش لكَ أن أُعَدَّ من العامِلَةِ النَّاصِبَةِ[٢] ، وأَكونَ كالذُّبالةِ المنصوبةِ تُضيءُ للناس وتحترقُ[٣] ، فلك المَثَلُ الأَعلى ، وهو بِكَ – وَبِى فِيكَ – أَوْلَى .

ولعمرى إنَّ صريحَ الرأْى أَن أَتحوَّلَ[٤] إذا بلغتْنِى الشمسُ ونبا بِىَ المنزلُ ، وأَصفح[٥] عن المطامع التى تُقَطِّعُ أَعناقَ الرجال ، ولا أَستوطئَ العجز ، ولا أَطمئنَّ إلى الغرور ، فَيُضْرَبَ بِى المثلُ : «خامرِى أُمَّ عامرٍ[٦]» . وإنى مع المعرفةِ بأَن الجَلاءَ[٧] سِباءٌ[٨] ، والنُّقْلَةَ مُثْلَةٌ[٩] :

وَمَنْ يغتربْ عن قومهِ لم يَزَلْ يَرَى مصارعَ مظلوم مَجَرًّا ومَسْحَبَا

---

(١) مثل يضرب فى كل أمر مشهور .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية » .

(٣) نثر قول العباس بن الأحنف :

صرت كأنى ذبالة نصبت تضىء للنـــاس وهى تحترق

(٤) هنا ثارت نفس ابن زيدون وأخذ يهدد بفراقه للوطن وأنه لا يصبر على الهوان .

(٥) أصفح : أضرب .

(٦) مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها ويغتر بها .

(٧) الجلاء : النزوح عن الوطن .

(٨) السباء : الأسر .

(٩) مثلة : نكال وعقاب .

وتُدْفَنُ منه الصالحات وإن يُسِئْ يكن ما أَسَاءَ النارَ فى رأس كَبْكَبَا[1]

لَعَارِفٌ أَنَّ الأدبَ الوَطَنُ الذى لا يُخْشَى فرَاقُهُ ، والخليطُ الذى لا يُتَوَقَّعُ زِيالُهُ[2] ، والنَّسَبُ الذى لا يُجْفَى ، والجَمالُ الذى لا يُخْفَى . ثُمَّ ما قِرانُ السعدِ بالكواكب أَبهى أَثرًا ، ولا أَسْنَى خَطَرًا ، من اقتران غِنَى النفسِ به ، وانتظامِها نَسَقًا معه ، فإن الحائزَ لهما ، الضاربَ بسهمٍ فيهما — وقليلٌ ما هُمْ — أَينما توجَّه وَرَدَ أَعذبَ مَنْهل ، وحَطَّ فى جنابِ قَبول فَنَزَلَ ، وضُوحِكَ قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ ، وأُعطىَ حُكْمَ الصبىِّ على أَهلِهِ :

وقبلَ له أَهلًا وسهلًا ومرحبًا فهذا مَبِيتٌ صالحٌ وَمقِيلُ[3]

غيرَ أَنَّ الموطنَ محبوبٌ[4] والمنشأَ مأْلوفٌ ، واللبيبَ يحِنُّ إلى وطنه ، حنين النَّجِيبِ[5] إلى عَطَنِهِ ، والكريمُ لا يجفو أَرضًا فيها قوابله[6] ، ولا يَنْسى بَلَدًا فيها مراضِعُهُ :

---

(١) كبكب : اسم لجبل فى الحجاز .

(٢) الزيال : المفارقة .

(٣) مقيل : من القيلولة وهى هنا تقابل « مبيت » فيراد بها قضاء اليوم كله .

(٤) هنا حدأت ثورة ابن زيدون ، فأخذ يعلن أنه لن يزايل جوار أبى الحزم ابن جهور ولا مدينته التى هى وطنه وبلده .

(٥) النجيب : الكريم من الإبل ، والعطن : مبارك الإبل حول الماء .

(٦) القوابل : جمع قابلة وهى التى تستقبل المولود عند نزوله .

أَحَبُّ بلادِ الله ما بينَ مَنْعج[١] إلىَّ وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ[٢] سَحَابُها
بلادٌ بها حَلَّ الشبابُ تمائمى[٣] وأَولُ أَرضٍ مَسَّ جِلْدِى ترابُها

هذا إلى مُغَالاتى بعَقْدِ[٤] جوارِكَ ، ومُنافَسَتى فى الحظِّ من قُرْبِكَ ، واعتقادى أَن الطمع فى غيرك طَبَعٌ[٥] ، والغِنى من سواك عَفَاء ، والبَدَلَ منكَ عَوَز[٦] ، والعِوَضَ لَفَاء[٧] :

وإذا نَظَرْتُ إلى أَميرِى زَادَنى ضَنًّا بهِ نَظَرِى إلى الأُمَرَاءِ

وكلُّ الصَّيْدِ فِى جَوْف الفَرا[٨] ، وفى كلِّ شَجَرٍ نارٌ ، واستمْجَدَ المَرْخُ والعَفَارُ[٩] .

فما هذِهِ البَرَاءَةُ[١٠] مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ؟ والمَيْلُ عمن يميلُ إليكَ؟ وهَلَّا كان هواكَ فيمن هواه فيكَ ، ورضاكَ لمن رضاه لكَ :

يامَنْ يَعِزُّ علينا أَن نفَارِقَهمْ وِجْدَانُنَا كلَّ شىءٍ بعدَكُمْ عَدَمُ[١١]

---

(١) منعج : موضع .
(٢) يصوب : يهطل .
(٣) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة التى تعلق على الصبى لاتقاء الحسد .
(٤) العقد : الضمان والعهد .
(٥) الطبع : الدناءة والخسة .
(٦) عوز : فاقة .
(٧) لفاء : خسة .
(٨) مثل يضرب فى الشىء الذى يفضل غيره .
(٩) المرخ والعفار : نوعان من الشجر سريعا الاتقاد ، واستمجد : زاد ناراً واتقاداً ، وهو مثل يضرب أيضاً فى الشىء الذى يفضل غيره .
(١٠) رجع ابن زيدون يستعطف ابن جهور متذللا خاضعاً لعله يلين له .
(١١) البيت للمتنبى .

أُعِيذُكَ ونفسى من أن أَشِيمَ خُلَّبًا[١] ، وأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا[٢] ، وأَكْدِمَ فى غيرِ مَكْدَم[٣] وأَشكُوَ شكْوَى الجريح إلى العِقْبانِ والرَّخَمِ[٤] . وإنما أَبْسَسْتُ[٥] لك لتدرَّ ، وحَرَّكْتُ لكَ الحِوَارَ[٦] لِتَحِنَّ ، ونَبَّهْتُكَ لأَنامَ ، وسَرَيْتُ إليك ، لأَحْمَدَ السُّرَى لديكَ . بعد اليقينِ أنك إن سَنَّيْتَ[٧] عَقْدَ أَمْرِى تَيَسَّر ، ومتى أَعْذَرْتَ[٨] فى فَكِّ أَسرِى لم يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ محيطٌ بأَن المعروفَ ثمرةُ النعمةِ ، والشفاعةَ زكاةُ المروءَةِ ، فَضْلَ الجاهِ ، تعودُ به ، صَدَقَةٌ :

وإذا امرؤٌ أَهدى إليكَ صَنِيعةً من جاهِهِ فكأَنَّها مِنْ مَالِهِ[٩]

لعلى أُلقِى العصا بِذَراكَ[١٠] ، وتَسْتقِرُّ بى النَّوَى فى ظِلِّك ، وأَسْتَأْنِفُ التأَدُّبَ بأَدبِكَ ، والاحتمالَ على مذهبكَ ، فلا

---

(١) شام خلباً : نظر إلى برق لا يصحبه مطر .

(٢) الجهام : السحاب لا غيث فيه .

(٣) مثل يضرب لمن يريد الشىء من غير موضعه .

(٤) نثر ابن زيدون هنا قول المتنبى :

ولا تشك إلى قوم فتشمتهم شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

(٥) أبسست : رفقت . وتدر : تسيل ، كناية عن تحوله إلى الرضا .

(٦) الحوار : ولد الناقة .

(٧) سنى : سهل .

(٨) أعذرتى : طلب العذر .

(٩) البيت لأبى تمام .

(١٠) الذرى : الكنف والجانب .

أُوجِدَ للحاسدِ مجالَ لحظةٍ ، ولا أَدعَ للقادح مساغَ لفظةٍ ، واللهِ شهيدُك من إطْلابى[١] بهذه الطَّلِبَةِ ، وإشكائى[٢] من هذه الشكوَى ، بصنيعةٍ تُصيبُ بها مكانَ المَصْنَع[٣] ، وتستودِعُها أَحفظَ مُسْتَوْدَعٍ ، حسبما أَنتَ خليقٌ له ، وأَنا منك حَرِىٌّ به ، فذلك بَيدِكَ ، وَهَيِّنٌ عليكَ .

* * *

ولَمَّا تَوَالَتْ غُرَرُ هذا النثر ، واتسقتْ دُرَرُهُ . فهزَّ عِطْفَ غُلَوائِهِ ، وجَرَّ ذيلَ خُيَلائه ، عارضه النظْمُ مُباهيًا ، بل كايَدَهُ مُدَاهِيًا ، حين أَشفَقَ من أَن يَعْطِفكَ استعطافُهُ ، وتميلَ بنفسك أَلطافُهُ ، فاستحسنَ العائدَة[٤] منه ، واعتدَّ بالفائدةِ له ، فما زال يستكِدُّ الذهنَ العليلَ ، والخاطرَ الكليلَ ، حتى زَفَّ إليكَ عَروسًا مجلوةً فى أَثوابها ، منصُوصَةً[٥] بِحَلْيِها وَمَلَابِها[٦] ، وها هى :

الهَوَى فى طلوع تلك النجومِ والمُنَى فى هبوبِ ذاكَ النسيم

---

(١) إطلابى : من أطلبه أى أعطاه ما طلبه .
(٢) إشكائى : إزالة شكواى .
(٣) المصنع : الصنع ، مصدر ميمى .
(٤) العائدة : الصنيع والمعروف .
(٥) منصوصة : مجلوة .
(٦) الملاب : الزعفران .

سَرَّنَا عيشنا الرقيقُ الحواشِى ... لو يدومُ السرورُ للمستديم

وَطَرٌ ما انقضى إلى أن تَقَضَّى ... زَمَنٌ ما ذِمامُهُ[١] بالذميم

إذ ختامُ الرِّضا المُسوَّغُ مِسْكٌ ... ومزاجُ الوِصالِ من تَسْنِيمِ[٢]

وغريضُ[٣] الدَّلالِ غَضٌّ[٤] جَنَى الصبـ ... ـوةِ نشوانُ من سُلافِ النعيم

طالما نافرَ الهَوَى منه غِرٌّ ... لم يَطُلْ عهدُ جيدِهِ بالتميمِ[٥]

زارَ مستخفيًا وهيهاتَ أن يَخْـ ... ـفَى سُرى البدرِ فى الظلام البهيمِ

فوَشَى الحَلْىُ إذْ مَشى وَهفَا الطِّـ ... ـيبُ إلى حِسِّ كاشحٍ بالنَّميم

أيها المؤْذِنى بظُلْمِ الليالى ... ليسَ يومى بواجدٍ[٦] مِنْ ظلُوم

قمرُ الأُفْقِ إن تأَملتَ والشمـ ... ـسُ هما يُكْسَفانِ دون النجوم

وَهُوَ الدهرُ ليسَ ينفكُّ ينجُو ... بالمصابِ العظيم نحو العظيم

بَوَّأَ اللهُ جَهْوَرًا شرفَ السُّؤْ ... دَدِ فى السَّرْوِ[٧] واللُّبابِ الصَّميمِ

واحِدٌ سَلَّمَ الجميعُ له الأَمْـ ... ـرَ فكان الخصوصُ وَفْقَ العُمومِ

---

(١) الذمام : العهد .

(٢) التسنيم : ماء الجنة ، وفى القرآن الكريم : « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم » .

(٣) غريض الدلال : مملوء به .

(٤) غض : ناضر .

(٥) التميم : جمع التميمة وهى العوذة .

(٦) واجد : حاقد .

(٧) السرو : الشرف .

قَلَّدَ الغُمْرُ[١] ذا التجاربِ فيهِ ... واكتَفى جاهلٌ بعلم العليمِ
خَطرٌ[٢] يقتضى الكمَال بنوْعَىْ ... خُلُقٍ بارعٍ وخَلقٍ وسيمِ[٣]
أيهذا الوزيرُ ها أنا أشكُو ... والعَصا بدءُ قرْعِها للحليمِ[٤]
ماعنانا أن يأنفَ السابقُ المَرْ ... بَطَ فى العِتْق منه والتَّطهِيم
وبقاءُ الحسام فى الجَفْن يَثْنى ... مِنه بَعْدَ المضاءِ والتَّصْميمِ[٥]
أفصبرٌ مئينَ خمسًا[٦] من الأيـ ... ـام ناهيكَ من عذابٍ أليمِ
ومُعَنًّى من الضَّنى بِهَنَاتٍ ... نَكَأَتْ[٧] بالكلُوم قِرْحَ الكُلوم
سَقَمٌ لا أُعادُ فِيهِ وفى العا ... ئدِ أُنْسٌ يَفى بِبُرْءِ السقيم
نارُ بغيٍ سَرَتْ إلى جنةِ الأَمْـ ... ـنِ لظَاها فأَصبحتْ كالصَّريم[٨]
بأَبى أنتَ إنْ تشأْ تَكُ بَرْدًا ... وسَلامًا كنارِ إبراهيم
لشفيع الثناءُ ،والحمدُ فى صَوْ ... بِ الحَيَا[٩] للرياح لا للغُيُوم

---

(١) الغمر : قليل التجربة .
(٢) خطر : شرف .
(٣) وسيم : وقور .
(٤) تضمين للمثل المشهور : « إن العصا قرعت لذى الحلم » .
(٥) السابق : الفرس ، المربط : اسم مكان ، العتق فى الخيل : الكرم والتطهيم : تمام الحسن فيها ، يشبه نفسه ، وهو فى الاعتقال ، بالصافن الذى سُمّ مكانه الذى ربط فيه لعتقه وكرمه .
(٦) إشارة إلى أنه قضى فى السجن خمسمائة يوم .
(٧) نكأ : أدمى . الكلوم : الجروح . القرح : ما بالجرح من فساد .
(٨) الصريم : الليل الأسود .
(٩) الحيا : الغيث .

وزعيمٌ[١] بأَن يُذَلِّلَ لى الصَّعـ ـبَ مَثابى[٢] إلى الهمامِ الزَّعيم
ووِدادٌ يُغَيِّرُ الدهرُ ما شا ءَ ويَبقَى بقاءَ عهدِ الكريمِ
وثناءٌ أَرسلتُهُ سلوةَ الظَّا عنِ عن شوقهِ وَلَهْو المقيمِ
فهو ريحانةُ الجليسِ ، ولا فخْـ ـر ، وفيهِ مزاجُ كأْس النديم
ومتى تبدإِ الصنيعة يُولِعـ ـكَ تمامُ الخِصانِ بالتتميم

هاكها ـ أعزَّك الله ـ يبْسُطها الأَملُ ، ويقبِضُها الخجلُ ، لها ذنْبُ التقصير ، وحُرمةُ الإِخْلاص فهبْ ذنْبًا لِحُرمةٍ ، واشفع نعمةً بنعمة ، لِيتَأَتَّى لكَ الإِحسانُ من جِهَاتِهِ ، وتسلُكَ إِلى الفضلِ من طرُقاتِهِ ، إِن شاءَ اللهُ تعالى .

* * *

(١) زعيم : كفيل .
(٢) مثابى : رجوعى .